سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني (٨)

نجوى قعوار فرح

عابرو السبيل

(قام باختيار اقاصيصه والاشراف على نشره لجنة من أصدقاء الأديبة وهم : سامي حبيبي ، توفيق قعوار ، عيسى الناعوري)

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ الأمانة العامة

العناوين من خط فؤاد اسطفان

الرسوم بريشة مصطفى فروخ

المقدمة

بقلم : عيسى الناعوري

عرفتُ نجوى في خريف عام ١٩٤٦ ، في محـــاضرة جاءت لالقائها في النادي الانجيلي في القدس بدعوة من الاتحاد النسائي العربي ، وكان موضوع المحاضرة (جهاد الانسانية) ، فرأيت فتاة شابـة تتدفق نشاطاً ، ويتدفق صوتها حيوية وحماساً وهي تلقي محاضرتها الطويلة ، وتستعرض جهـــاد قافلة البشرية خلال عصور التاريخ في سبيل المثـــل العليا والسعادة والحرية . فلما انتهت المحاضرة ، قدّمتُ نفسي للآنسة ثم طلبتُ منها أن تعطيني محاضرتها لأقدمها الى مجلة (الاديب) في بيروت ، لأنني رأيتُها جديرة بأن تنشر في تلك المجلة الراقيـة . وقد كان ، ونُشرت المحاضرة في عدد تشرين الثاني من ذلك العام .

ولم تكن نجوى قد ظهرت ككاتبة اديبة الا في ذلك العام نفسه ، وقبل المحاضرة بأشهر غير كثيرة ، ولكن ظهورها كان في

الحقيقة قوياً منذ البداية ، فقد كانت كتاباتها تتّسم – الى جانب رشاقـــة العبارة وحيويتها – بالنضوج والعمق ، وتتميز بجمال الخيال ، والبراعة في اختيار الموضوع وطريقة تناوله . وذلك ما لفت نظري اليها حالاً ، وما دفعني الى حضور أول محاضرة لها في القدس

ومنذ ذلك الحين قويت أواصر الصداقة بيني وبينها ، وكنتُ أقرأ لها كل ما تنشره في الصحف . الى ان كانت مأساة فلسطين، وبقيت نجوى في الناصرة ، وتشرّدتُ انا مع اسرتي الى الاردن، فلم أعد أعرف عن نجوى أو تعرف هي عني شيئاً ، وتوقف قلمها الجميل عن بثّ همساته العذبة في (الاديب) و (صوت المرأة) و (المنتدى)و (القافلة) و (الغد) وغيرها من الصحف ، وعن بثّ صوته من محطات القدس ، والشرق الأدنى ، ولندن ، وهولندا . وكنت لذلك اشعر بأن قلماً قديراً قد احتجب في ما حجبته المأساة من أشياء جميلة .

وحين كنتُ أصدر مجلة (القلم الجـــديد) كنتُ أود لو استطعت أن اعيد ذلك القلم الى الميدان ، ولكن لم يكن ذلك ممكناً ، فاكتفيتُ في العـــدد الخامس من المجلة – وهو الخاص بالأدب في ضفتي الاردن – بأن اختار لها قطعةً سَبَقَ نشرها في مجلة الاديب .

واخيراً تتاح لي فرصة مناسبة لأشترك مع الصديقين الكريمين

سامي حبيبي وتوفيق قعوار – وكلاهما من اصدقاء الأديبة النابهة – في اختيار مجموعة من انتاجها الادبي الذي سَبَق المأساة، والاشراف عليه . وكان من أشدّ دواعي سروري أن اكون أنا الذي يقدّم هذه المجموعة الى القراء ، فأشعر بتجدد الصلة بيني وبين هذا القلم المنتج الجميل .

* * * *

سيجد القارىء في هذه المجموعة خمس عشرة أقصوصة ، سبق أن نشرت او اذيعت . والاخيرة منها هي أطولها ، حتى ليمكن القول إنها اكثر من اقصوصة ، لأنها تزيد في حجمها على ثلاث من أخواتها . وسيجد ان جميع ابطال هذه الأقاصيص هم من المعذبين او المتألمين ؛ بعضهم نساء وبعضهم رجال ، واسباب ألمهم متنوعة ، فبعضها شقاء اجتماعي ، وبعضها شقاء عاطفي ؛ واغلبها نتيجة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة في الشرق ، او بسبب الجهل والرجعية ، او بسبب تحكُّم الاقطاعية ، او سوء النُّظم والحُكم .

وسيلمس القارىء في اغلب هذه الأقاصيص نقمة طاغية عنيفة على غطرسة الاغنياء وقسوتهم ، وعطفاً بالغاً على الطبقات الضعيفة المتألمة .

وسيلمس كذلك روعة التأثير العميق في هذه الاقاصيص ،

سواء في خلق الحوادث او وضع الحوار ؛ ولكنّ ابلغ التأثير يكمن في خواتيم هذه الأقاصيص ، فانها تثير الدمع على الرغم من البساطة الجميلة التي في اغلبها . سيجد هذا التأثير البليغ بشكل خاص في خواتيم (اليتيم الفنان ــ الابن الاكبر ــ بهجة الخريف ــ منحة طفل ــ الطبيب المجهول ــ فتاة موهوبة) . وفي القسم الآخر من المجموعة تجد ابلغ التأثير في سياق الاقصوصة ، كما في (بائع الصحف ــ اي السبيلين ــ وحيدة ــ الابن الاكبر) وغيرها .

ومما يثير في نفس القارىء شديد الاعجاب بهذه المجموعة ، هو ان المؤلفة كانت بارعة كل البراعة في اختيار الحادثة وخلق المناسبة والحوار في جميع اقاصيصها . وكثيراً ما تبدو براعتها عظيمة ايضاً في الوصف : وصف الاجواء القصصية ، ووصف الطبيعة ، ووصف الاحاسيس المتنوعة . وفي هذه الاخيرة تتجلى مقدرة المؤلفة في التحليل النفسي الدقيق لأحاسيس الحب ، والحزن والطفولة ، والحنو ، والاستسلام ، والتمرد . وهذه المواقف التحليلية في بعض اقاصيصها ــ كما في : بهجة الخريف ؛ منحة طفل ؛ بائع الصحف ؛ ساعة الرحيل ؛ وحيدة ؛ اليتيم الفنان ؛ فتاة موهوبة ؛ وعندما عاد النيروز ــ انما تزيد في قوة المجموعة ، وفي شدة تأثيرها ، وروعة وقعها في النفس .

والمؤلفة دقيقة الملاحظة ، قوية الاحساس بما حولها . وقوة

الاحساس ودقة الملاحظة ميزتان اساسيتان في الاديب والفنان ، وعليهما يرتكز الى حدّ بعيد جمال الابداع وقوّته في انتاجه الفني . والقارىء يلاحظ ان نظر المؤلفة واحساسها لا يفوتهما احساس يتيم ، او فتاة موهوبة ، او بائع صحف ، او اجير في مقهى ، او جدّ عجوز يبذل حنانه لحفيده ، او عانس تقف حياتها لسعادة شقيقها واولاده ؛ او معلمة عجوز وحيدة في ليلة عيد ، او انسان ساذج يعلّم ذوي العلم قيمة الاتكال على رحمة الله ، او غير ذلك .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية تتدفق على فلسطين جماعات عديدة من البولونيات الشقراوات ، فتغص بهن القدس ، والناصرة ، وعين كارم ، وحيفا ، وجهات اخرى كثيرة من فلسطين ، ويكون مجيئهنّ سبباً في مآسٍ عائلية واخلاقية عديدة ، وفي إشاعة كثير من الفساد الخلقي في الشباب المتهالك على الجمال الغريب المباح . فيكون هذا باعثاً لقلم نجوى على وضع قصة تحليلية وصفية طويلة رائعة ، كانت البولونيات الشقراوات فيها هن عامل الفساد والدمار ، وهدم السعادة في قلبين شديدي الحب والاخلاص ، ووقوع مأساة مدمرة لهما معاً . تلك هي قصة (عندما عاد النيروز) .

وفي هذه القصة الطويلة المليئة بالتحليل العاطفي والوصف الجميل ، تلتقي براءة الحب وعنفه ، بقساوة الهجر وآلامه ،

والندامة ومرارتها ، والصفح وجماله ، ثم عذاب الفراق الابدي . إنهـــا أحاسيس مختلفة ، تجمعها الظروف والمناسبات التي عرفت المؤلفة كيف تؤلف بينها ببراعة تامة .

ولا تكاد تخلو قصة من هذه المجموعة من عظة وعبرة ؛ ففي بعضها ثورة على الرشوة والنفاق والدجل الاجتماعي ، وفي بعضهـا نقمة على غطرسة الاغنياء وذوي المظاهر الخـــادعة ، وفي بعضها حث على الايمان برحمة الله وعدالة السماء ، وفي بعضها نقد لاوضاع المجتمع السيئــة ، او لرجعية بعض من يحاربون المدنية العصرية فتصرعهم المدنية وتمضي في تقدّمها ، وهكذا .

والى جانب ذلك يظهر اثر الشعور الديني بوضوح شديد جداً في عدد من الاقاصيص . فاحتفالات عيـــد الميلاد ، وتراتيلها واجراسها ومشاعرها ، وهـــدايا العيد، تتكرر في (وحيدة — منحة طفل — الابن الاكبر) وكذلك تتكرر الاشارات الى المدارس التبشيرية ، والتمثل ببعض الآيات من التوراة والانجيل؛ وتشيع الروح الدينية المؤمنة الشديدة التمسُّك بأهداب الدين في (ساعة الرحيل، والطبيب المجهول) وفي الاولى بشكل خاص ، فإن أي متدين يقرأها يشعر بأنهـا اوقع في النفس من عظـات الف قسيس .

وليس غريباً ان تشيع هذه الروح في ما ينتجه قلم نجوى ، فقد نشأت نشأة دينية ، وكان خالها القس مرموره — رحمه الله —

رئيس المجمع الانجيلي في فلسطين والاردن ، ثم قدّر لها ان تصبح اخيراً زوجة قسيس ، هو القسّ الفاضل رفيق فرح راعي الطائفة الانجيلية في حيفا الآن .

****

الى جانب الحسنات الكثيرة التي يلمسها القارىء في هذه المجموعة ، فتثير في نفسه الاعجاب والتقدير ، سيلاحظ ان في بعض الاقاصيص اضطراباً في الحوار بين الفصحى والعامية ، حتى ليجتمع كلاهما في العبارة الواحدة ، كما في العبارة التالية من قصة (حكيم المقهى) : « ألا يكفي انك انقذتني ؟ وبتخسر من جيبك كمان ؟ » . وهذا الاضطراب بين العامية والفصحى يتكرر كثيراً ، وبشكل بارز .

الاّ انّ ما في الاقاصيص من التأثير ، والقوة ، والتحليل ، والوصف ،والجمال ، يطغى على هذا الاضطراب ، ويهوّن من امره ، حتى ليكاد يختفي من ذهن القارىء الذي يهمُّه الموضوع قبل كل شيء ، فينساق اليه بكل حواسّه ، ويستغرق فيه بلذة كثيرة .

واخيراً اترك القارىء الكريم الى الاستمتاع بهذه المجموعة الاولى ، للأديبة النابهة السيدة نجوى قعوار فرح ، بعد ان حلتُ بينه وبينها في هذه المقدمة .

عمان – في آذار سنة ١٩٥٤ عيسى الناعوري

أي السبيلين ؟

كان الفتى يسير في شمس الاصيل على غير هدى وبصيرة . وكثيراً ما يلتفت الى الغيوم يؤلف من اشكالها الغريبة صوراً يطمئن اليها ، ولكنها سرعان ما تتغير كأنها تسخر منه ومن تأليفه .

واخذت احداث حياته تمر من امام مخيلته كتلك الصور التي نسجها من الغيوم ، ولكنها كتلك الصور ايضاً ابت ان تستقيم له كما ارادها ، فأخذت دوافع الحياة تسيرها ، وتكيفها ، وتؤثر عليها . انه الآن يراها صوراً حائرة سافرة ، ولكنها بالرغم من هذا فيها شيء من العناد والكبرياء .

لقد انهى منذ عام دراسته الجامعية ، وخرج الى جامعة الحياة

وفي رأسه تلك الاقوال والنظريات التي كان يسمعها ويدرسها في هياكل العلم . كان يذكر اساتذته ، وهم يحاضرون بحماس ولباقة عن الحرية والعدل والخير والجمال ، وعن تطور الانسان ، وفلسفة التاريخ ، وروعة الشعر الجاهلي .

وتسرب الى قلبه شذا الذكريات، وهو مستلق في ظل شجرة السرو الباسقة ، يراقب الموج اللعوب يتحدى الشاطىء العنيد ، وما كان يجيش في نفسه من آمال وعقائد . . لقد كان يؤمن بأن قيمة الفرد هي بما يحققه في مسعاه نحو الكمال النسبي . وتذكر كيف كان ينذر ان يقف حياته بكل ظروفها ومسالكها لتحقيق هذه الغاية .

واستفاق لمحيطه فاذا به يسير في طريق وعر ، والهواء يعبث بشعره ، فعضّ على شفته السفلى حتى كاد يدميها . فذاك عهد من حياته قد انساب ، وكان مشرقاً جميلاً ، لانه كان ناسكاً في هيكل المعرفة ، متعبداً في محراب الفلسفة ، مؤمناً تمام الايمان بقوة نفسه ، وبأن يخلص لمبادئه متى خرج الى العالم ، ويعمل على نشر رسالة الخـــير الاعظم الذي يحقق غرض الانسان ، ويبرر وجوده .

ولكن يا للحياة ما اقساها .

لقد توظف حين خروجه من الجامعة في احـــدى الدوائر ،

وجاءه اصحاب المصالح يطلبون منه ان يتساهل معهم ، ويغض النظر عن بعض وسائلهم وتصرفاتهم ، ويطلبون منه اموراً اخرى ، وله الاجر والجزاء . فاستشاط غضباً وقال لهم : انهم يحقرونه يوم يزينون له ان يسلك سبيلاً ملتوياً مثل هذا ، فلا شيء يقنعه ان يحيد عن سواء السبيل .

وعاد الى البيت يقص على والده ما حدث ، فاذا الوالد يضرب كفاً بكف ويصيح به « يالك من ابله مغفل .. ألا تعلم ان كل معاملات الناس تسيرها الرشوة ... فهذا هو السبيل الوحيد للنجاح والثروة والمركز الاجتماعي »

وحدّق في والده .. والده الذي كان يعلمه وهو صغير الصدق والأمانة . آه ... لقد فهم الآن ، الصدق والامانة لتنسج حولهما قصص للأطفال ، ولكن ليس للتطبيق في ميادين الحياة .

وجاء يوماً لزيارتهم موظف كبير في الدائرة التي يعمل فيها ، وكان مع الموظف الكبير ابنته الشابة ، واوعز اليه والده ان في يد هذا الموظف سبيل الترقية ، فعليه بمسايرته وملاطفته والالتفات الى ابنته ، ولكنه لم يعرها التفاتاً اكثر مما توجبه آداب الزيارة العادية .

وسمع امه تقول لوالده بعد ذهاب الزائرين :

« يا ليتنا لم نعلمه ونخسر عليه ، فالمسكين « مش ملحلح ».

وابتسم ابتسامة مرارة ويأس ، ورن في اذنيه هـذه المرة تعليق ثان من أمه الذكية :

« ليس من الضروري ان يطلب يدها ، ولكن ليوهم والدها ان ذلك في نيته حتى ينال حاجته . ايبقى ابن الجيران الذي لم ينل شهادة الجامعة ، ولم يكلف والده ربع ما كلفنا ولدنا ، ايبقى في منصب أعلى منه ، وامه مرفوعة الرأس كأنها شامتة بي ؟ » .

واستفاق في هذه المرة لمحيطه وقد اوغل في الطريق المنفرد واذا الغيوم البيضاء قد ازينت اطرافها بوهج الشمس .

ولكنه لم يبق حتى في منصب اصغر من منصب ابن الجيران، بل ان الموظف الكبير اخذ يمعن في انتقاده بعد ان اكثر من دعوته الى بيته فرفض اكثر الدعوات ثم تطاول عليه واتهمه بعدم الأمانة في عمله ، وأيده اصحاب المصالح الذين لم يتساهل معهم ، واصبحت الحياة لا تطاق ، فقدم استقالته من الوظيفة .

وهنا بلغت ذكرياته المؤلمة اوجها ، فهو يذكر انه لم يكن يملك من المال شيئاً يمكنه حتى من شراء كتاب ، او يملك مصروف الجيب . اما والده فهو اذا ناوله المبلغ البسيط نظر في وجهه كأنه يقول له : اهذه هي النتيجة ؟ علمناك لتشد ازرنا ، فاذا بنا لا نزال ننفق عليك » ؟؟

لا ، كل شيء يحتمل ما عدا هذا .

وشغرت وظيفة معلم فتعلق بهـــا كما يتعلق الغريق بزورق النجاة . التعليم مهنة بل دعوة نبيلة لطيفة ، فلا (برطيل) ولا ابنة موظف كبير . ولكن ما اضله عن الواقـــع ، فللتعليم مشاكله ، وهو الآن لا يستطيع ان يذكر تلك الناحية المؤلمة من حياتـه التي تتلخص بأنها صراع الاساليب الحديثة مع الاساليب الباليـة ، فمدير المدرسة من خريجي عـام ١٩١٨ ؛ وبين من تخرجوا عام ١٩١٨ رجال نابهون اكسبتهم السنون والايام خبرة ودراية . ولكن مديره هذا كان ممن يرفضون ان يخضعوا لدورة الزمان ، فهذا العلم الذي حصّله حين تخرج من المدرسة ، لم يزد عليه حرفاً واحداً ،وانما رافقه غرور وسخف،وشيء من الاعتداد بالنفس ، يثير اشمئزازاً وسخرية .

وكان هذا المدير لا يكاد يجد مناسبة حتى يمسك بالمعلم الشاب، ليحدثه عن ذكائـه وتفوقه ايام الدراسة . وكل هـذا محتمل لو لم يكن المدير يدخل الصف ويدلي بانتقاداته امام التلاميذ، ويذكر للمعلم انه يوم كان يعلم مثل هذا الدرس في السنة الفلانية في المكان الفلاني ، كان يعمد الى وسائل الايضاح هذه او تلك ، ففي تعليم الجداول – وقـد علم هذا الدرس في شتـاء عام ١٩١٩ في بـلدة (س) – خطرت له فكرة كبيرة ، وهي ان يوزع على الاولاد كميات من الفول او العدس ، يحفظونها في علب الكبريت . ولما

اجاب المعلم بان الدوائر البيضاء والحمراء ، والمعدات والأخشاب الصغيرة ، وهي الشائعة اليوم في التعليم كوسائل ايضاح لمثل هذه الدروس تفي بالغرض . اجاب المدير انه اكتشف بعد طول اختبار ان الاولاد يحفظون ويستوعبون فكرة التكرار في الجداول من الفول والعدس اكثرمما يستوعبونها من الدوائر الحمراء والبيضاء او غيرها من وسائل الايضاح .

ومثل هذا كان لوناً بسيطاً من مشكلة التعليم ، يثير المعلم الشاب شيئاً من السخرية البريئة . ولكن المدير يذهب الى ابعد من هذا ، فهو مصرّ على اتباع أساليب في التعليم فسدت صحتها ، ويجبر المعلم على الاخذ بها ، ولما حاول المعلم ان يشرح للمدير ان فرويد ، او مدام منتسوري ، او غيرهما من رجال التربية الحديثة قد اعرضوا عن هذه الاساليب وبرهنوا على خطئها ، ثار المدير غضباً ، وأجاب بانه لم يسمع بفرويد او مدام منتسوري ، وهما على كل حال لا يعلمان من مشاكل التعليم اكثر منه ، وانه هو – أي المعلم – ممعن في القحة يوم يدلي بمثل هذه الآراء ، ولا يحترم خبرة مديره .

وساءت حال المعلم، ورغبت نفسه عن التعليم ، وقدم الاستقالة .

وقال له اصدقاؤه وفي عيونهم نظرات ساخرة :

مالك يا أخي لا تستقر ولا تهدأ ؟ النـــاس يقضون العمر في وظيفة واحدة ، وانت تشغل كل يوم منصباً جديداً ؟

فاجاب وهو يتظاهر بانه لا يفهم نغمة السخرية : « ومـــا لذة العيش الا في التنقل »

وقالت امه يوماً لوالده : « كثير الكارات ، قليل البارات !» فقد تطـــاول حتى على مدير المدرسة القدير الذي علم اكثر سكان البلدة !.

* * *

وكان الأدب ثالث ما امتهن . وقال في نفسه : ان الادب هو دعوته الاولى والاخيرة ، فقد تخصص به في الجامعة ، ووقف له كل ما في نفسه من حب وحماس ، وكان الاجدر به ان يمتهنه من البداءة ، بدل ان يدخل دوائر تقدم فيها المصالح الشخصية على الواجب ، وبدل ان يلتحق بمدارس لا تزال اساليبها تمت الى العصور الوسطى .

سيكتب كتاباً عن العصر العباسي ، فهو قد درس هذا العصر دراسة وافية ، واحب سيره ومدنيته ورجالاته ، وأحس انه

قريب منه ، يفهم روحه ، فهو حيّ صاخب متحرك في مخيلته .

سيصور بغداد وقد انتصبت مآذنها ، وعلت قصورها وفاح عبير حدائقها ، وتدللت فيهـا الغيد الحسان ، وازدانت بربات الخدور من الحور الفارعات .

سيذكر الخلفاء الدهاة ، والملك العريض ، والثروة الفاحشة التي تدفقت الى خزائن المال .

وهنـالك ايضاً الاحزاب الكثيرة ، والحلقات العلميـة ، والمدارس الفكرية ، والمذاهب الدينية .

سيوفي البحث حقه عن التأثيرين الفارسي واليوناني في العقليـة العباسية . سيذكر الشعوبية ودواعي ظهورها ، الشغف العلمي ، بيت الحكمة ، ثورة المـأمون ، المكاتب الكثيرة ، فهرست ابن النـديم .

سيبهج القارىء برقة الشعر العباسي ، وما دخل عليه من اناقة لفظية ، ثورة بشار ، خمريات النواسي ، زهد ابي العتاهية ، رفـاه ابن المعتز وهلاله المثقل بالعنبر .

كتاب رائع سيخدم الادب والتاريخ ، به نفحات من الماضي العبق . سيتهافت القراء عليه ... سيخطب وده أصحـاب النشر. سيعيد الثقة الى نفسه الحائرة ، وآماله المحطمـة . سيرضي جيب والده وغرور امه .

وكتب الكتاب ، واعتقد انه قد وفق فيه . وعرضه للنشر وسلمه للنقد ، واعلن احدهم عنه « العصر العباسي في ثوب جديد . عرض جميل . معالجة لبقة بقلم فني . بعث وتجديد » بداءة حسنة ولكن اين القراء ؟

ومرت الايام والشهور . وكان هو يمر بالمكاتب فيجد اعداداً منه لا تتناقص ، وقد اخذ لون دفاته يبهت ويبور .

وردد في نفسه قول ابي العلاء « وعيش كعيش الاديب » .

وقالت أمه : كأنه لا تكفينا الكتب التي ملأ بها الدار ، حتى قام بدوره يكتب . مسكين والده ، يتعب ويكد النهار بطوله ، وهو جالس يكتب .

وأضاف الوالد : والنفقات علينا . وعن اي شيء يكتب ؟ عن العصر العباسي . النـــاس تطير الى النجوم ، وهو يرجع الى الوراء ليكتب عن العصر العباسي ! »

ولما استفاق لنفسه في هذه المرة ، كان البدر قد بدأ يبزغ ، وكانت الغيوم البيضاء تحوم حوله كملائكة رفيقة تقوم على حراسته .

واخذ يتأمل البــدر والغيوم ، ويرتب في مخيلته اجنحة الملائكة ، ولكنه ما كاد يكمل الصورة حتى بدت كأشباح حانقة تريد ان تلتهم البدر النشوان .

ملائكة ام اشباح ؟

اي الوجهتين ينظر ؟ وفي حياته اي الطريقين يتبع ؟ كما يريد والده ، وموظفو الدائرة ، والمسؤول عن المدرسة ، ام يخلص لما عزم عليه وهو جالس تحت الشجر الباسق في الجامعة ؟ فالثورة تحتاج الى الوقود .

أشباح ام ملائكه ؟

اي الطريقين ؟ اي السبيلين ؟ الى اين يتجه ؟

انه مضطر ان يجيب على هذا السؤال ، فحياته قد بلغت نقطة التحول . لم يبق الا هذه الليلة . واختفت الاشباح والملائكة ، وتحولت الغيوم الى غـــلالة رقيقة فضية شفافة تغطي وجه القمر الحالم . ولكنه استمر في التفكير « يقلب رأياً ويبدل به آخر . وشحب وجه القمر وانسابت عـــنه الغيوم ، كأنها سفن مثقلة بالاحمال تعبر عرض المحيط .

الى اين؟ وما الغرض من الرحيل ؟

اليس الرحيل بحد نفسه غاية ؟ ولكن اذا كان السبيل غاية ، اوليس من الضروري ان يكون هذا السبيل مشرقاً جميلاً تسيره المقاصد الكبرى التي يفتخر بها الانسان ؟

وطال تفكيره ، ولكنه عندما انتبه لنفسه كان الفجر ينبثق بعنف وتوهج ،ولكنه كان قد حزم امره في اي السبيلين سيتجه .

انه لم يصرح برأيه ، ولكن لعل الذي يراقبه يعرف سبيله ، عندما انتصب واقفاً وكانت نظراته لا تذعن ولا تخضع ، واخذ يسير نحو الفجر بخط مستقيم لا يلتوي عنـــه ، ولو أنـه في معرض الخطر .

وكانت غيوم الفجر المتألقة تسير معه كأنها سرب من ملائكة الرحمة تحميه وتحرسه .

بائع الصحف

كان ككل باعة الصحف ، يجاهد النهار بطوله ، مستعملاً كل انواع الاغراء ليتخلص من حصته من هذا الورق الذي ُتسَجّل عليه الوان من نشاط الانسان . لقد كانت هذه الحصة تبدو له في الصباح كأنها جبل ثقيل لا يدري ما الذي سيخلصه منها ، ولكنها كانت تذوب في آخر النهار ، كأنها جبل من جليد أشرقت عليه الشمس .

ومع الزمن اصبح له زبائن ، تعوّد ان يبيعهم ، وتعودوا ان يشتروا منه ، وكان الى جانب هذا يهرع الى موقف الباصات ، وكلما وصل باص ، كان يتسابق مع صحبه ، يعدد الاخبار المثيرة ، لعل بين الركاب من يهمه الامر ، ثم يرتد ظافراً ، ان هو تخلص من صحيفة ، ولكنه كثيراً ما كان يرتد فاشلاً ، وكان

ذلك الباص سراب موهوم ، تألق ساعة ثم سار في سبيله دون ان يحقق له غاية .

اما حياته اليومية ، فكانت تنساب مع انباء الايام التي يعلن عنها – حياة حقيرة جاهلة ليس لها من غاية الا كسب طعام ذلك اليوم ، وما احقره من طعام .

لقد كان يعيش وحيداً مع امه ، التي تخدم يوماً في الاسبوع وتمرض بقية ايام ذلك الاسبوع ، ثم تذهب الى المؤسسات الطبية تستجدي تشخيص الداء ، ولكنها تعجز عن دفع ثمن الدواء إلى الصيدلية .

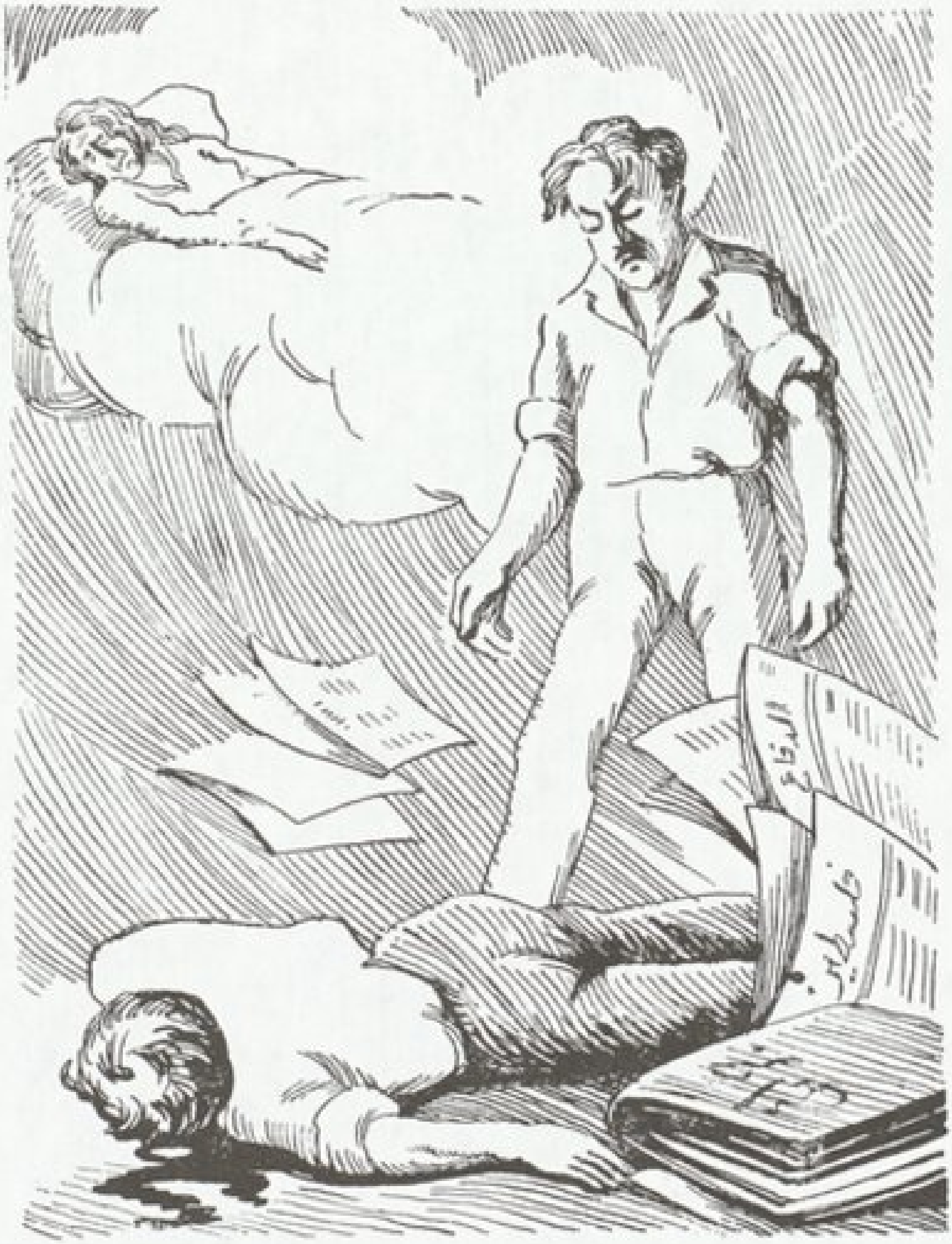
ولكن بالرغم من كل هذا فهو يستطيع ان يضحك ، فلم يكن في حياته ما يفسح له المجال ليدرك حقارة هذه الحيـــاة وجهلها وضعتها ، فهي بعد كل هذا حياة . حياة لها متعها ولهوها امـــام « الكراج » وفي السينما على الاخص ، حيـــنما يشيع الخبر بين صحبه ان الفلم ممتاز .

والفلم الممتاز في شرعه ، وشرع صحبه ، هو ذلك الذي يدور حياة مجرم كبير ، يضلل البوليس ، او ذاك الذي يكون من رعاة البقر في امـــيركا ، وهم يسابقون الريح على ظهور خيولهم المدربة .فاي هزة من الاعجاب وروح المغامرة،والميل الى الحزبية

تسري في قلبه عندهـــا . واذا به يكثر من التصفيق للبطل ، وينسى كل شيء ، ينسى انه على مقعد قذر في الصف الامامي من السينما المتواضعة ، فقد كانت تلك السهول الممتـدة ، والعشب الطويل ، والسماء المتوهجة ، بمنظر الغروب ، هذه المناظر وكثير غيرها مما يبدو على الشاشة تملك عليه خياله ، وتدعوه اليها بحرارة ، ويندفع قلبه ليلبي الدعوة ، وليعانق البطل الشاب ، ذا الوجـــه الذي لوحته الشمس ، ثم ينتهي كل هـــذا ، وبشيء من الاسف والندم يستفيق الى محيطه فيضطر الى العودة الى واقع حياته ، ولكنه في اليوم الثاني كان يقلد مع زملائه ، الكلمات والحيل التي رآها على الشاشة .

ولم تكن حياته تخلو من المنافسين على لقمـة العيش ، وهو يكره هؤلاء المنافسين ،لانه يجوع في بعض الاحيان، من مزاحمتهم له على هذه اللقمة . ومن هؤلاء زميله الذي يكرهه كل باعـة الصحف والذي يحسن التملق والحيـلة ، حتى ان الوكيل على نزاهته اصبح يحبه ويتساهل معه ، ولكن هذا الزميـــل خبيث ماكر ، يسخر من كل رفقائه ، ويعتدي عليهم ويشي بهم .

وجاء يوم اخذ يمر فيه بزبائنه ، فلم يبد عليهم انهم يريدون الجريدة فحار في امره ، وما كان اشق عليه ان يعود الى الوكيل



بحمله الثقيل كما خرج به . وهل هنالك امرّ من تلـــك النظرة الباردة التي يرمقه الوكيل بها ، فتجعل قلبـــه يجمد في داخله ، وبيأس وحيرة يهرب من هذا الذي يحس به الى مأواه في الغرفة الارضية بالقرب من الاسطبل ، فاذا به يصطـــدم بشعور اقسى وأمر . فهنالك امه المريضة ، وانين متواصل فى الليل والنهار، وعشاء بارد قاس مؤلف من خبز الاعاشة الاسود، قد يجد احياناً له غماساً يكون الجيران الاغنياء قد تكرموا بـه ، وفي اكثر الاحيان يبله بالماء البارد .

ولكن امه ، انها لا تثير في نفسه الشفقة والعطف عليها فقط ولكنها تثير ايضاً لونا من التعاسة والالم الذي لا يدري مـــا يفسره ، فهذا النوع من الحزن يجعـله يعضّ على الغطـاء في الليل البهيم ، لئلا تسمع امه بكاءه وانفاسه .

يا لعملائه ? لماذا عزفوا عن قراءة الجريـدة ، فقضوا على رزقه ? لقد كان عشاؤه خبزاً يابساً فقط .

وفي اليوم الثاني سمع كلمة من الوكيل مفادها ان الوكيل قد اكتشف اهماله ، فهو لا يبيع الصحف ، انما يقضي النهـار في اللعب والتدخين . فثار ثائره وأحس بشبح الوشاية . وقضى ليلة تعسة ثانية .

وجاء اليوم الثالث . ولكنه اكتشف سبب تعاسته . الحزبية

آه ، كيف غاب عنه واقع الامر ؟ تذكر طريقة بيعه للصحف فهو يترك زبائنه للنهاية . ويطرق الدروب الوعرة اولاً ، فاذا بمنافسه يستغل ذلك ، فيذهب الى زبائنه يبيعهم الجريدة ، ثم يعود الى زبائنه هو فيتم البيع لهم . ولم يكفه ان سلبه زبائنه ولكنه ايضاً وشى به .

وما ان اكتشف كل ذلك حتى سار يريد الانتقام ، وقد تجمع كل ما في نفسه من حقد قديم عليه . وتذكر كل مخاصماته معه ، وتذكر جرحاً بليغاً كان قد سببه له في رجله ، وكذلك الاحزاب من الصبية الذين كان يؤلبهم عليه ، وامرّ من كل هذا وذاك هذه الضحكة البشعة الخبيثة التي كان يقابله بها .

وما ان سنحت له الفرصة حتى اوقع به .

انه لم يقصد ان يسيء اليه بهذا القدر ، كل ما اراده ان يلكمه بعض اللكمات ، ولكنه ما كاد يظفر به حتى اطبق بيديه الحديديتين على منافسه الماكر . واخذ منافسه يشتمه ، وذكر امه في شتائمه فلم يصبر على ذلك ، فاذا به يلكمه في رأسه لكمة قوية ، سقط على اثرها على الارض . وسال الدم من غريمه حاراً متدفقاً ، فقد اصطدم هذا الغريم بحجر حاد عندما سقط ، وكان جرحه خطراً جداً .

وحجزه البوليس ، ولأول مرة جرّب عقوبة الجلد ، فالسوط القاسي يلهب جسده كانه قضبان من النار تلسع جسده النحيل ، وكانت صرخات الالم لا تثير من حامل السوط الا قسوة متجددة.

كان يقول في نفسه : الالم شديد جداً .. ولكن بعدها .. عندما ينتهي هذا الالم ، سأوذي كل من بامكاني ان أسيء اليه . سأقتل ، واسرق ، واكذب ؛ فهم لا يفهمون معنى ان يجوع الانسان ، وان تكون له ام مريضة ، لا يملك ثمن الدواء الذي يشفيها ... ولكن لن اجوع بعد اليوم ، ولن ابيع الصحف ... سأصبح شيئاً آخر .

وكما يوضع المعدن في النار ليصبح صلباً ، كذلك كانت تلك النفس تتحجر وتقسو تحت نار السوط الملتهب .

لقد انساب من قلب بائع الصحف الخير والمحبة ، وبقي منه وحش هائل يستعد للهجوم .

وبعد ذلك لم يتطوّع للكفالة احد ، كما انه كان تحت السن القانونية ، فساقه البوليس الى دائرة الشؤون الاجتماعية .

وسمع احد هؤلاء الكبار يقول له « لماذا تعديت على زميلك ؟ » ، وأراد ان يجيب ولكنه لم يستطع ان يجيب بشيء ، فبقي صامتاً.

« قل لنا ... هل اساء اليك زميلك؟ »

واراد ان يقول: نعم ، لقد اعتدى علي ، وانتزع مني زبائني الذين ابيعهم الصحف . ولكنه ارتد عن هذا القول ، فقد تلفت حوله ، ورأى هيبة المجلس، والموظفين الكبار بثيابهم الفاخرة ... وخال إن هو ذكر مشاكله الحقيرة في هذا المجلس انهم سيغرقون في الضحك عليه، ثم هل يفهمون هم معنى ان يجرد بائع صحف زميله من زبائنه ؟ ، هذه امور لا يفهمها الا باعة الصحف ... لا ... انه لن يجعلهم يضحكون منه ، فبقي صامتاً .

« اتذكر انه سلبك شيئاً او انتزعه منك انتزاعاً » ؟

« لا ، انه لم يفعل شيئاً من هذا »

« اذن، لماذا اسأت اليه وهو الآن طريح المستشفى ، وفي حالة خطرة ؟ »

« طريح المستشفى، وفي حالة خطرة ، هذا كلام لا يعني عنده شيئاً ... فهل حالة هذا المعتدي اشق من ضرب السوط ، ولسعه الحار ... وتوهج وجهه ؟ وبقي صامتاً .

« الا تريد ان تجيب » ؟

ولكنه لم يجب .

وكتب التقرير عنه... شخصيته خطرة . تحب الجريمة لغايتها ، يجب ان يراقب بدقة ... وتحت كل الظروف. فالاذى والاساءة جزءان من شخصيته » .

وقال كاتب التقرير « ستنقل الآن الى مدرسة الاحداث تتعلم فيها القراءه والكتابة ، وكذلك مهنة تستعين بها على تحصيل رزقك في المستقبل . . اولا تظن انك تحب مكاناً مثل هذا ؟ . .

« انا لا احب شيئاً ، ولا اريد ان اذهب الى اي مكان . اريد ان اخرج من هنا » .

« الى اين » ؟

الى العالم . . الى . . . ولكنه قطع كلامه فجأة . . اراد ان يقول لهم اين ينوى الذهاب . ولكنه ادرك خطورة ذلك القول فسكت .

وتعلق السائل بجملته « الى اين ، » انا لم اسمع الجملة الثانية .

« الى حيث اريد »

« اتدرك انت انك كافر بالنعمة . فنحن نتلطف بمعاملتك ونريد خيرك ، وانت تفتش عن اساءة الى نفسك . ستذهب حينما تريد بعد ان تنتهي من هذه المدرسة ، ويكون سلوكك فيها مرضيا ، وتصرفك حسناً . وتعطى شهادة انك ولد لطيف ، مطيع ، امين في عمله .

وردد في نفسه « امين ، لطيف ، مطيع » وتذكر السوط

الذي الهب جسده ، وتذكر أمه ، وتذكر الليالي التي يقضيها جائعاً ، تعيساً ، يستمع الى انينها المتواصل . وانبعثت من اعماق نفسه مرارة اليمة ممزوجة بتهكم يائس ، اشعرته بميل لان يضحك من سذاجة هذا الموظف الكبير .

. . . .

ولكنه التحق بمدرسة الأحداث ، وكان من الممكن ان ينسى كل ما مرّ به ، فالتغيير والتحول صفتان لازمتان في الطبيعة البشرية ، وخاصة في السن المبكرة . غير انه يواجه الآن ما هو اقسى من كل ما خبره ، فهو يعيش في جو من الشك به ، والريبة بتصرفاته . المعلمون لا يثقون به ، ولا يعاملونه كبقية الاحداث ، ولا يصدقون اقواله ، ويريدون برهانا حسياً ، او شاهدا من الاولاد ليثبت صحة ما يقول . وهم يلاحظونه في وحدته ويلاحظونه بين الطلاب ، ويفتشون الغرف التي يكون قد دخلها ، ، واذا ما حدث مشكل مدرسي ، فهو اول من يتعرضون له ، يستجوبونه ، ويحاكمونه ثم ينزلون به العقوبات المدرسية .

وفي احدى الليالي ، وقد هدأت الاصوات ، وسرى النوم الى كل من في منازل المدرسة تسلل بخفة وقفز من اعلى السور واطلق ساقيه للريح . وكان يشعر بسعادة خفية وهو يركض في الليلة الباردة وفي حراسته النجوم الصامتة .

ومرت ثلاثة ايام ، وهو يسلك الدروب الوعرة ، حتى وصل الى مدينة بعيدة في الجنوب . امـــا هم فقد فتشوا عنه كثيرا ، ولكنه احسن التخلص منهم . ألم يتعلم ذلك في السينما ؟ . .

وتعلقت نفسه بلفظة السينما ، فهي مفتاح سري ، يقوده الى ذلك العالم البعيد الجميل ، حيث هنالك سهول واسعة وجياد اصيلة وشبان اقوياء . يملكون ما يريدن لانهم شجعان ، لا يهابون البوليس ، ولا الناس ، الناس ... كم يكرههم ...

شبان اقوياء ، يحملون مسدسات ، ويحسنون ركوب الخيل ، وهو... هو .ـ الا يستطيع ان يصبح واحداً منهم ؟ ومدّ ذراعه ينظر الى قوة عضله الذي بدا من كم قميصه البالي ، وراقته شدته وقوته ، واشرق وجهه .

كثيرا ما كان يصفق للبطل .. ولكنه من اليوم سيمثل دور هذا البطل .. سيصبح الان حمالا متخفياً ، ولكنه يأمل ان يصبح امراً اجل .. سيصبح نشالا عـــلى الطريقة البلدية اولا ، وعندما يتقن الفن عـلى اصوله ، ستكون له عصابة كبيره ، هو بطلها وسيدها ورجلها الاول .

وعندما يكون الناس حيارى ملتاعين يفتشون عن هذا الذي سلبهم اياه ، وعندما يكون البوليس حائرا يتلفت ذات اليمين والشمال ، انه عندها سيقهقه ضاحكا ، وسيذكر السوط الذي الهب جسده ، والشك الذي قوبل به ، عندما كان امينا وصادقا ، وسيشعر مع كل هذا بلذة النصر .

العودة

كانت الطريق في الجبل ضيقة وعرة ، وقد بدا البدر في السماء كقارب ذهبي يمخر بحرا فضيا ، وكل نجمة كأنها حسناء لعوب تنتظر متيقنة انه يسير اليها .

ولكن احمد لم يكن يفطن الى البدر ، ولا الى وله النجوم . فكلما امعن في السير كان يلتفت بعنف ويأس الى القرية الضئيلة الملقاة في اسفل الجبل ، وينظر الى مصابيحها المتراقصة ، ويخالها تسخر منه . وكان الغناء والهتاف المتصاعدان منها يثيران حنقه وسخطه ، واشدها اثرا في نفسه زغاريد النساء ، فكأنها موجهة اليه ، شامتة به ، ويولي هو ظهره بسرعة ليهرب من كل هـــذه الاثارات المزعجة ، ولكنه فجأة يعود فيلتفت اليها ، مذعنا لسلطتها ، كأن سيطرتها اقوى منه ، ولا يملك هو الا أن يعترف بها .

واصطدمت رجله بحجر ، واحس بالدم يتدفق منها ، وأنّ انة حزينة ، وكان هذا الاصطدام سببا لان يتغير شعوره من الغضب الى الكآبة ، ومن الثورة الى اليأس .

لقد وقع الحادث المشؤوم ، وها هي فاطمة تزف الى ذلك العجوز ، الذي اشتراها بمهر كبير .

وكان ذكر اسمها كفيلا بان يلقي به في غمرة من الذكريات . ولكنه شعر ان هذه الذكريات تفر منه ، لتنتهي الى المقر الاخير .

تذكر مراقبته لها عند العين ، ومتابعته لهـــا بين البساتين وكيف كانت تنظر في عينيه كانها تقول .. ان رفيقاتي يلاحظن كل شيء ولكن هذا لا يهم فقط انتظرني دائما .

وتذكر اذا ما احتضن الليل القرية ، كيف كان يمر بنافذتها، فيراها وقد حلّت شعرها الاسود ، وتألقت عيناها ، وتخضب وجهها بحمرة عميقة فيطل من النافذة ويقول « نوم الهنا يا فاطمة » .

فتنتفض ، وقد زاد لمعان عينيها وتقول « اهو انت يا احمد ، انك ماكر جدا . كم قضيت من الزمن هنا ، وانت تتفرج دون ان اعلم بوجودك » .

« صدقيني لقد اتيت الآن فقط » .

« وانـّى لي ان اعلم مبلغ الصدق فيما تقول ، ولكن امريض انت ، »

« لا ، وما يحملك على هذا القول ، »

« لست ادري ، ولكني عندما مررت بالحقل اليوم ، ورأيتك وانت تحصد القمح ، لاحظت انك أنحل مما اعرفك وكانت عيناك عميقتين جدا في وهج الشمس » .

ويجيب هو « لا شك انك كبرت يا فاطمة ، فقد اصبحت تلاحظين امثال هذه الامور »

« احمد ، اذهب ، لقد أتوا » .

ويسير احمد في طريقه ، وقد استقرت في قلبه صورة الوجه المشرق ، والعينين الكحيلتين والشعر الاسود المسترسل .

وفي بعض الاحيان تتجرأ فاطمة ، فتلح على ان تذهب في الغد الى المدينة ، فيذهب هو الآخر ، واجتماعهما في المدينة هو اقصى ما يقدران عليه من مغامرة. لقد كان يشتري لها الحلوى أو المناديل ، ويسير معها وحيدين في ازقة المدينة ، واي شعور يستولي على نفسه عندها وهو يشعر انـــه مسؤول عنها في المدينة الكبيرة . ولكنهما لم يكثرا من هذه الاجتماعات خشية ان يلتقيا بافراد من ابناء القرية او بناتها المتجولين في المدينة ، وهنالك الطامة الكبرى.

. . . .

هكذا نما حب فاطمة في قلب احمد ، جزءاً من حياته في القرية

وهذا الحب لا ينفصل عن الريح في زمهرير الشتاء ، ولا عن اوراق الخريف المتطايرة في الفصل الكئيب ، ولا عن سنابل القمح الذهبية التي تنتظر الحصاد .

لقد كان حب فاطمة يتفاعل مع شروق الشمس ، وهي تطل على القرية الوادعة كل صباح ، وكان الغروب الصامت الثائر يكسب ذلك الحب ، عمقا وغموضا ، بل لقد تراءى لاحمد أن النجوم الصغيرة الخفاقة تفهم حالته وتشاركه وجده .

اما العين « والطابون » والبستان ، فقد اصبح جوها جميعا مشبعا بعبير فاطمة ، وذكرى فاطمة ، فهو لا يمر بها الا ويستنشق عبير هذا الحب .

انها جميعها ،من العين ذات الماء اللجيني ،الى النجم المتألق ،كانت اشياء تمت باشد الصلة الى حبه ، فهذه جميعها تحول حياته الى حلم حار ، وتكسبه مشاعر واحساسات تهز نفسه ، وان عجز عن تفسيرها .

وفجأة اذا المصيبة تأتي في شكل الكهل المثري . وما ان سمع احمد ان قد طلب الزواج من فاطمة ، حتى جن جنونه ، وكاد أن يفقد صوابه ، فانتزاع فاطمة منه هو هدم حياته من جذورها ، والقضاء على كل ما كان متغلغلا في نفسه من آمال وأمان . فاخذ

يرسل الواسطة اثر الواسطة والشفاعة اثر الشفاعة ، لدى والدها ليرفض الكهل المثري ، وليرضى به زوجا لفاطمة .

ولكن الوالد رفض ، وأصر عـــلى الرفض ، فمهر فاطمة سيمكنه من شراء ارض مجاورة لارضه ، كانت ولم تزل سبب العداوة بينه وبين آل بدر ، اذ ان كلا من العائلتين تطمع في استملاكها ، نظرا لوجود الماء فيها ، ولما كانت الارض مرتفعة فخروج الماء فيها سيحول دون تفجرها في اليناـبيع السفلى ، اي بكلمة اخرى مالك الارض سيملك زمام الموقف .

اما صاحب الارض فكان كلما هم ان يبيعها الى احد الجارين ، يحاول الجار الآخر ان يقنعه الا يفعل ذلك ، ويعده أن يشتريها منه لقاء ثمن كبير ، وما عليه الا ان ينتظر موسم الحصاد .

وما ان سمع والد فاطمة بالمهر الكبير ، حتى سرى الى نفسه طمأنينة وأمل ، فها هي الوسيلة التي تحقق له حلمه الكبير ، قـد جاءته بشكل مهر فاطمة ، ولذلك فليس بمستغرب ان يصم هذا الوالد اذنيه عن سماع كل شفاعة او واسطة ، ان كان مصدرها الشاب المتيم او الفتاة التعسة .

وهنـــا ثقلت الذكريات على احمد ، فانتصب كمن يريد ان يهرب من كل هـذا ، وقد احس ان قلبه سينفجر ، ثم اخذ يعدو كأن احدا يتابعه .

مرت السنون . وتبعتها سنون أخر ... وها هو رجل يناهز الاربعين من عمره ، واقف على « العين » في القرية التي كانت يوما ما مسكنه ووطنه ، وفي وجهه صمت ومسحة من الحزن والهيبة .

والتفت الرجل لسماعه ضحكة رنانة ، وقد اراد ان يرى صاحبتها ، فاذا فتاة بين جماعة من رفيقاتها تقلد لهن عجوزا ، ثم يغرقن جميعا في الضحك ، وسارت الفتيات مسافة قصيرة بعد ان انتهى التمثيل ، ثم عادت ووقفت الفتاة بينهن ، فوقفن جميعهن ، واخذت في هذه المرة تقلد لهن جارتها العروس ، وهي تضع الكحل في عينيها ، وتنظر في قطعة مكسورة من مرآة كبيرة . ثم تترك اناء الكحل لتضع شيئا من « الحبق » في عبها ، ثم تعود الى الكحل ثانية ، وهنا تغرق الفتيات في الضحك حتى تكاد جرارهن تهوى عن رؤوسهن .

واخذ احمد وصديقه يراقبان كل هذا باعجاب في بادىء الامر ، ولكن احمد اخذ يسمع في صوت الفتاة رنات مألوفة لديه ، حبيبة الى قلبه ، ثم تراجع وهو يقول في نفسه ، هذه فاطمة ! هذه فاطمة يوم كنت اعرفها ، فهذه ضحكتها وصوتها بل هذه قامتها الرشيقة .

واخذ ماضي حياته يطوقه ، اخذ يزحف بثورته وصخبه ، بروائحه ونغماته ، فهيهات ان يرى قريته ، ويرى عينها وطوابينها ،

وبساتينها ، وحصادها ، ولا يهب حبه من مرقده ثائراً ، صاخبا .

« من الفتاة ؟ »

واجاب صديقه « انها أبنة فاطمة »

وقال احمد « اريد ان اخطبها يا جابر ، هلا ذهبت الى ذلك الهرم والدها ، واطلعته على نيتي »

واجاب جابر بخبث .. لقد توفى ذلك الهرم يا احمد ، ولا اخالك الا تعلم هذا » .

ولم يعلق احمد على قول جابر وانما قال « ومن ولي امر الفتاة » ؟

« عمها . حسن السليم » ، وبالمناسبة انه يحاول ان يقنع امها فاطمة بالزواج منه » .

وتجاهل احمد تعليق صديقه وقال « هلا ذهبت اليه »

. . . .

وجلس احمد ينتظر في دار صديقه ، ولم يكن في غرفة اللبن احد سواه . ماذا سيكون تأثير الخبر على فاطمة ، كم يتمنى ان يراها مغلوبة على امرها ، و . .

وسمع الباب ذا الدقة الواحدة يتحرك .

من في الباب ؟

« ام السعيد »

اهلاً وسهلاً . كيف حالك؟ ها قد هرمت اخيرا . ولكن اخبريني ! هل زوجت ابن ابنك ، »

نعم، زوجته. وان شاء الله ازوج ابنه ايضا. اتظن انهم مثلك يسمحون للعمر بالانقضاء دون ان يتزوجوا . . لا . . لقد تزوجوا جميعا ، وخلفوا اولادا ما شاء الله عليهم » .

« وفقهم الله . وانا سأتزوج ايضا » .

اذن لم يكن كذبا ما سمعته . يا لك من مغفل . ومن يترك فاطمة ليتزوج من ابنتها ؟

. . اه . . لقد مضت مدة طويلة دون ان اسمع معاكستك يا ام السعيد . ولكن اخبريني اليس افضل ان يتزوج المرء من فتاة صغيرة .

«نعم ، ولكن ليس عند ما يكون لها ام ارملة كفاطمة » .

انك مبعوثة يا ام السعيد ! كم ستنالين سمسرة ؟ صدقيني الخبر »

« يا لك من شخص سيء النية . ما اردت الا نصحك . . . لقد سمعتهم يقولون احمدعاد الى قريته ، ويريد ان يتزوج من ابنة فاطمة .... فقلت في نفسي يا للمغفل الكبير ، انتظرها طويلا ، ولم ييسر الله امر هذا الزواج بادىء بدء . ثم هـــا هي الفرصة

عادت فسنحت له . . فاذا به يضيعها . ولكنني عدت وقلت في نفسي: صعب على الرجل ان يرد مرتين ، ولعل احمد لا يدري انه لن يرد في هذه المرة . . . حقا يا احمد ان فاطمة زين : وجه مثل البدر ، وعنق كالغزال ! مالك ولهذه الطفلة البلهاء . »

« يا ام السعيد . . اما ان انا فالبله يعجبني . . . ما عاد لي في فاطمة رغبة ، بعد ان صدتني ولم ترع لي عهدا » .

مسكينة فاطمة يا احمد . . مسكينة ، حصوة فضة رموها في الطين . . . وهل مثل فاطمة كان بامكانها الا ان تخضع لحكم والدها. لقد عاشت عيشة مثل قرط الصوان مع ذلك العجوز الخرف . كانت تبكي دموعا تفتت الاكباد . . . وتقول لي يا ام السعيد . . . «الدنيا حظ . . صدقيني ما عاد لي رغبة في العيش . . فانا ما لي عيون تشوف ها الشيخ اللي بلا سنان » .

وانا لا اكتمك يا احمد ان فاطمة في قرارة نفسها لم تأسف كثيرا لموت هذا الزوج العجوز . ولكن سرورها لم يطل ، فها هم يبعثون لها كل يوم من يقنعها بالزواج من اخيه ، وهي ترفض بعناد واصرار فلا تدع الفرصة تفوتك . فكّر مليّاً يا احمد . . . ولا تسمح للغضب والانتقام ان يستوليا على نفسك فأني أكاد أتيقن ان قلبك لا يزال عند فاطمة ، وانك ما عدت الى البلد ، الا ان سمعت بموت زوجها » .

«ام السعيد ... كفى» .

«على خـــاطرك يا بنيّ . نصيحة عجوز محنكة . الله يهنيك ويوفقك. بخاطرك . ولكن قبل ان اخرج احب ان اخبرك ان صديقك جابر لم يبلغ عم عائشة بنيتك بعد ، نحن نريدك ان تفكر اولا .

وخرجت ام السعيد . ولما جاء الليل لم يستطع احمد النوم .. وخرج ثانية من القرية .. وكانت النجوم كحسان عــابثات في انتظار البدر المتكبر . ونظر الى القرية من الجبل الذي شهــد خروجه الاول بحزن والم .. وقد بدت له مصابيحها كأنها تناديه ليعود ، وتتوسل اليه ألاّ يكون جائرا ، منتقما ، كانت تقول له .. ان هذه السنوات الفائتة كانت حلما موهوما فقد عجزت عن ان تغير ما في قلبه .

واخذ احمد يجادل المصــابيح البعيدة قائلا لها .. ان قلبه قد تغير .. ولكن المصابيح هزت رأسها ، غير مقتنعة وقالت له .. انه متكبر .. يريد ان ينتقم من نفسه ومن فاطمة ، لانه عجز عن الانتقام ممن اساؤوا اليه حقا ... لقد قالت له المصابيح .. ان الحب والحنين هما اللذان دفعاه لي ان يعود الى القرية ، ولكن الكبرياء والتعنت يصدانه عن الظفر بهذا الذي اعاده الى القرية..

وقالت له المصابيح ايضا .. ان فاطمة لم تتغير ولكنها ليست مثله تريد ان تنتقم .. انما هي حزينة حائرة لم ترزقها الحياة الا عجوزا هرما ، لم يطل عمره وهو ... ان كان حقا شهما عليه ان يعود اليها .. وعندها سيكون للحصاد عبيره الاول ، وللنجوم بهجتها الاولى ، وللعين لحنها العذب ، وللبساتين رونقها وفتنتها... وانتصبت جميع هذه تغريه ، وتجذبه اليها ... فاذا به غارق في جو قريته التي احبها لاجل فاطمة ...

وسمع المصابيح تستمر قائلة ... ان فاطمة تتلوى حرقة وحنينا . انها تنتظره ،وما دام يعرف ان نفسه ستنهج هذا السبيل الملتوى فكان عليه الا يأتي من البداءة ، فهو قد اتى لفاطمة وليس لابنتها . وان المصابيح الشاحبة البعيدة متيقنة انه عالم بموت زوج فاطمة ، وانه لم يأت الا انه عرف بموته .. فلم التجاهل والانتقام؟

وتململ في مكانه وقد خيل اليه انه يسمع صوتا يقول له «اهو أنت يا احمد .. كم من الزمن قضيت هنا »

وخيل اليه انه يرى في الظلام الوجه المخضب بالحمرة العميقة والشعر الاسود المسترسل، ورن في اذنيه صوتٌ شابٌ مشتاق :

« لقد اتيت الآن »

« ولكن احمد ، أمريض انت ؟ ، »

ورأى دولاب الزمن يعود بسرعة ، حتى استقر عنـــد نقطة معلومة .

واستمر الصوت العذب يحادثه ، ولكنه في هذه المرة كان حزينا متألما .. « وهل تريد ان تذهب الآن ايضا ، . »

وأجاب في هذه المرة رجل في الاربعين من عمره : « لست ادري ... »

ولكنه وقف منتصبا ، واخذ يسير عائداً نحو قريته .

وكانت رائحة الحصاد تناديه ، وكذلك العين .. وحتى النجوم كانت تستحثه على العودة .

حكيم المقهى

لقبه زملاؤه في المقهى بهذا اللقب لهذه التعليقات والاحكام التي كان يصدرها عادة بعد كل حادث او مشهد . وحرف «الكاف» في كلمة حكيم قابل للتغيير حسب لهجات الخدم . ولما التحق احد القرويين للعمل بالمقهى ، وكان يغير الكاف الى شين ، الصق لقب «حتشيم» بسليم بطريقة لم يعد يتبدل معها ، حتى ان بعض الذين يترددون على المقهى ، لقفوا اللقب من الخدم فاصبحوا ينادون هكذا : « اثنين ساده يا حتشيم »

وكان سليم يتلقى كل هذا بعدم مبالاة ، وبشي من العبث يلتفت اليهم احيانا ويقول : «واني لحكيم بينكم».

وكثيرا ما كان سليم يصدر بشأن زملائه احكاما ممزوجة بالعبث والتهكم :

«انت يا سعيد ، المقهى مش شغلتك ، اما ان تصبح معتدل القوام لتتمكن من السير بين الطاولات وإما ان تذهب إلى(H. 4)لتهزل.

«انت يا يوسف «الميجنا ما خده عقلك ، يا ريت واحد من جماعة الاذاعة يدرى فيك ، ويريحنا منك » .

واذا ما ضج خدم المقهى من صوت بدر المزعج ، كان الحكيم يتوجه اليه بالنصيحة الآتية ..

«الافضل ان تفتش لك عن واحدة طرشا تتزوجها »

ولكن انا ما كنت ابيح لنفسي نعته بهذا اللقب، مستندة على امثال هذه التعليقات ، فهنالك صفة اخرى في شخصيته يمعن هو في اخفائها تحت هذا القناع من المرح ، وهي قلبه الكبير ، وعطفه على الناس من حوله — هذا العطف الذي لم يتوصل الى ممارسته نتيجة لمذهب ما ، وانما كان مدفوعا اليه بالفطرة وقد لا يكون بعيدا —بعد ان يقال كل شيء— ان تكون الحكمة والخير مترادفين.

....

دقت الساعة معلنة انتصاف النهار ، ولم يكن في المقهى الا رجلان يهمان بالانصراف بعد ان احتسيا القهوة. اما صاحب المقهى فقد عاد الى منزله لتناول الغداء. والتفت سليم فوجد حسنا اصغر الخدم ، واحدثهم عهدا بالمقهى ، جالسا على كرسي ، وفي وجهه حيرة وحزن .

«حسن ، ما بك ، ؟»

واقترب الولد من العم سليم بقدم رجلا ويؤخر اخرى .

« عمي سليم » بهذا كان حسن ينادي سليما دون ان يلجأ الى لقب حكيم رغم شيوع اللقب في عالم المقهى « ابو ابراهيم لمّح بان سيستغني عن خدمتي »

«ولم يا حسن وهو الذي عبّر عن رضاه عن عملك ونشاطك من ايام ؟»

« نعم ، ولكنه الآن يشك في امانتي »

« يشك في امانتك، ولم؟ ، »

« ولكن أمن المعقول ان تصدقني انت ، مع ان ابن عمي اللابس بوليس لم يصدقني ، وقال لي بعد ان سردت له الحادث إذهب بلا بلف »

« ولكن انا سأصدقك يا حسن ، ما خبرك ، »

« اتعرف السيد جميل الذي يتردد على المقهى »

وهز سليم رأسه اشارة الى انه يعرفه . بالامس عندما كنت غائبا ، حضر الى المقهى، وطلب لنفسه ولجماعته مرطبات ثم قهوة، وبلغ حسابه نصف جنيه ، ولما قدمت له ورقة الحساب تناولها . ووضعها امامه ، وعندما عدت وحملت الاكواب الفارغة لم يدفع

لي الحساب ، وعندهـــا لم اهتم بالامر ، ولكني لما رأيته خارجا وراء جماعته طالبته بالحساب ، ظنا مني انه قد نسي ذلك ، فالتفت الي غاضباً وقال انه دفع المبلغ ، ووضعه على ورقة الحساب ، وانني اخذت المبلغ عندما حملت الاواني الفارغة . وعندها قلت له « لا ، يا افندي ، انت غلطان مادفعتش » فاذا به يلطمني على وجهي حتى لم اعد ارى ما حولي ، وجاء عندها ابو ابراهيم فقال له جميل افندي ، :

« كيف ترضى ان يعمل لصوص في مقهاك يا ابا ابراهيم ؟ »

واخذ يقص عليه الحادث زاعما اني اخذت نصف الجنيه ، ولما حاولت ان اعترض صفعني ابو ابراهيم على وجنتي الاخرى وهو يزمجر :« انت تجرؤ على تكذيب جميل افندي ؟ من حسن حظي ان اكتشف حقيقتك قبل ان تطول خدمتك » وصمت الولد فجأة، وقد جالت في عينيه دموع كبيرة اخذت تنحدر على وجنتيه الشاحبتين. وبعد لحظات اضاف الولد :

« ليس فصلي عن العمل هو وحده ما يزعجني . . ولكن والدي . . انت لا تعرف قسوته . متى بدأ يضرب الواحد منا ، لا يتركه حتى يسيل دمه . .

« حسن ، امتأكد انت ان جميل افندي لم يضع نصف الجنيه على ورقة الحساب ؟ »

لا ، يا عمي سليم ، ورقة الحساب بقيت مكانها . ولم يمد جميل افندي يده الى جيبه .

اسمع يا حسن، سأحاول مساعدتك ولكني لا اعدك بالنجاح. اما انت فعليك الا تخبَر احدا باني سمعتُ شيئاً عن الحادث . من العبث ان نحاولُ اقناع أبي ابراهيم ان جميل افندي كاذب وانت صادق ، وليس لنا الا ان نلجأ الى الحيلة . اذهبْ الان فقد حان موعد رجوع ابي ابراهيم .

وبعد لحظات دخل ابو ابراهيم ، وقد ظهر عليه انه تناول وجبة ثقيلة ، واقترب من الحكيم ليتحدث اليه قليلاً بينما هو يحتسي القهوة التي اعتاد شربها في المقهى . وبعد ان علّقا على خلاصة آخر انباء المترددين على المقهى قال « الحكيم » وهو يخرج نصف جنيه من جيبه « بالمناسبة يا ابا ابراهيم ، لقد وجدت نصف الجنيه هذا ملقى عند قدم الطاولة المجاورة »

وفتح ابوابراهيم عينيه الصغيرتين وقال وهو يتناول نصف الجنيه

« ومتى وجدتها يا حتشيم »

«صباح اليوم عندما كنسنا القاعة »

« حتشيم ، لنصف الجنيه هذه قصة » فقد وضعها جميل افندي على ورقة الحساب ثمنا للقهوة . والظاهر انها سقطت وعندما جاء

هذا المغفل « حسن » لم يجدها . فما كان منه الا ان اخذ يتهم جميل افندي بعدم الدفع . اما انا فقد اعتقدت مثل جميل افندي، ان حسن اراد التلاعب فهددته بالطرد . ولكن يالجرأة هذا الولد. كنت اتمنى ان تراه يدافع عن نفسه بجرأة ، ويتهم شخصا مثل جميل افندي . عال ، اننا ننجح كثيراً في جلب الزبائن ، ما دام امثال حسن يتهمونهم بالسرقة .

وقال الحكيم . . « حسن ، مسكين ولد طيّب القلب . آه ، لقد فهمت الآن لماذا كان ساهما اليوم بطوله . ان نصف الجنيه بالنسبة لحسن امر خطير الشأن . انه لا يستحق الطرد ، فهو نشيط خفيف الحركة » .

وقال ابو ابراهيم « نعم نحن لا نستغني عنه لخفة حركته كما انه يرضى بالاجر البسيط الذي لا يرضاه ابن المدينة . اين هو ؟

« اظنه يغسل الاكواب . أأدعوه اليك ؟ »

« نعم »

ودعا سليم حسناً ، واخبره ابو ابراهيم بانه عدل عن طرده ولكن عليه ان يفتح عينيه في المرة الثانية ويرى الدراهم التي تدفع له »

واراد حسن ان يحتج بان اية دراهم لم تخرج من جيب جميل

افندي، ولكنه تذكر بسرعة ، ان هذه الحيلة كانت اصالحه وعليه ان يصمت لئلا يطرد من المقهى .

وانتهز حسن فرصة خروج ابى ابراهيم واقترب من حكيم المقهى وقال : « عمي سليم . كيف يمكنني ان اشكرك . لقد انقذتني »

« لا تشكرني يا حسن . فـانا مسرور لانك ستمكث في المقهى »

ولكن الا يمكن للناس ان يصدقونا الا اذا كنـا اغنياء ، واصحاب بدلات فاخرة ، »

« في الواقع يا حسن ان ثروة الاغنيـاء ، وبدلاتهم الفاخرة كثيرا ما تكون احسن ما فيهم .

. . . .

وفي آخر الشهر اقترب حسن من العم سليم وفي يده نصف جنيه ولكن الحكيم دفعها عنه وهو يقول : « خليها في جيبك يا حسن فوالدك يطالبك بالمعاش. »

« لا ايها العم . هذا كثير . الا يكفي انك انقذتني وبتخسر من جيبك كمـان . انت صاحب عيال » ولكن الحكيم رفض نصف الجنيه . ولمـا عاد حسن من قريته حيث قضى يوم عطلته

الشهري ، توجه بسلة البيض والخضار التي حمله اياها والده الى بيت العم سليم بدلاً من بيت ابى ابراهيم .

. . . .

وانقضت الاشهر وجاء اليوم الذي قال فيه حسن للعم سليم :
أسمعت ماذا يقولون عن السيد جميل ؟
« وماذا يقولون عنه ، »
لقد رفعت قضية ضده ، لانه يتلاعب باجور العمال . الا تريد ان نخبر ابا ابراهيم الآن عن حقيقة نصف الجنيه .

« لا يا حسن ، ما لنا وله » .
ولكن الحكيم عزم ان يخبر ابا ابراهيم بذلك عندما تسنح فرصة مناسبة .

. . .

واستمر حسن يعمل في المقهى ، هذا المقهى الذي بامكانه ان يكون مدرسة لمن يفتح عينيه ، وقد رأى حسن فيه الواناً مختلفة من الناس . ولكنه بقي يعتبر سليما حكيم المقهى . وقد طرأ على حياة حسن تغيران ، أما الاول فهو انه أصبح يقسم هدية والده من الخضار والافراخ والفواكه الى شطرين يتوجه بنصفهـــا الى بيت ابي ابراهيم ، وبالنصف الآخر الى بيت الحكيم ، الذي كان

كثيراً ما يتمنع عن اخذها ، حتى يبدو في وجه حسن خيبة وألم، وعندها يتناولها الحكيم ويقول : في هذه المرة أقبلها ، ولكن لا تعاودها يا حسن ، فابن آدم تقتله السعادة – وطبعاً أعني عادة الاخذ يا حسن – تفضل على الفطور معنا .

« أشكرك . سبق الفضل يا عم »

وأما التغير الثاني فهو ان حسنا فقد ثقته باصحاب البدلات ، وكلما كان صاحب البدلة الثمينة ممعنا في التأنق ، كان شك حسن في أمره أكثر ، بل انه كان يتحايده ، ويتحاشى ان يكون هو من يحمل إليه القهوة .

الطبيب المجهول

انه في السابعة والخمسين من سنه ، في نفسه زهد فطري ، زاده عمقا وشدة ما لاقاه في الحرب العظمى الاولى من اهوال ، كان يدرس الطب في استنبول وما ان نال شهادته حتى عين طبيباً للجيش ، ورأى ساحات القتال وقد انتثرت فيها جثث لا تحصى ورأى مع كل هذا رخص الحياة ، وحقارة غايتها ، وظلم الانسان وشرهه ، فاستولى عليه يأس شديد زاد زهده في الحياة عمقا وشدة وبقيت هذه الذكريات اشباحا سوداء مرعبة كامنة في نفسه ، تصده عن متع الحياة ، كلما حاول ان يقبل عليها ليرتشف من كأسها ، فهو يسمع هذه الاشباح تقهقه ساخرة في نفسه ، وتحمله على ان يقول ..

« الانسان طيف عابر في وادي الحياة ، فهو كزهر الحقول ان كان فاضلا خيرا ، وكشوك الحقول ان كان شريرا ظالما .

ولكنه في الحالين زائل ، وكل منشآته ومشاريعه كاكوام الرمل التي يقيمها الاطفال على شاطىء البحر . ثم يمتد الماء اليها فيجرفها في لمحة عين ساخرا من كل مجهود بُذِل لاقامتها . فالى اين ينتهي كل امل الانسان وحماسه ؟ انه لا يدري ، ولن يحاول ان يدري ، فهذه المحاولة مهزلة ، لان امكانيات الانسان احقر من ان تؤهله لمعرفة مشكلة الزوال ، فصفة الزوال كامنة فيه . بامكان الانسان ان يحسن سبيل الحياة ، وينمق فترة الوجود ، اما الموت فهو عاجز عن معالجته لانه خاضع له . ولذلك فهو لن يفكر بمعضلة الحياة والموت لانه قطرة من هـــذا البحر البشري الذي يعلو صخبه وضجيجه ثم تُخرِس المقبرة اصواتَه »

هذه كانت عقيدة الطبيب الكبرى ، وحزنه وفرحه ، ومـــا يعترض حياته من اختبارات تسيطر عليها هذه العقيدة في النهاية وتجعلها جزءاً منها . ومرت على الطبيب احداث الحياة .. درس الطب في استنبول ، وتزوج فتاة جميلة ، انجبت له اطفالا خمسة ، واعتكف في بلد متواضع فقير الحـــال ساذج السكان بعيد عن اسباب المدنية ، وكان هو يعيش في هدوء يقبل على الحياة هـــذا الاقبال الزاهد فيها المتشكك من امرها .

ولكن بينما هو منطو عـــلى نفسه هذا الانطواء ، كان صيت

الطبيب المخلص ينتشر بين البدو والحضر ، فهؤلاء البدو يهزهم نبل الطبيب وتواضعه وتضحيته ، فهم يذكرون يوم مكث عندهم شهرا كاملا عندما انتشر التيفوس بينهم ، وكانوا يتساقطون على حد قولهم (كنفل التين) وهو لا يعرف نوما ولا راحة ، انما هو ساهر عليهم يجاهد بحياته وعلمه ، ليدفع عنهم شر هذا المرض ووباله .

ثم هو يزور القرى المجاورة لا يأبه لقر الشتاء ، ولا لحر الصيف ، يسير مشيا على قدميه ان تعذرت وسيلة النقل ، ويروون عنه كيف كان يدس (المجيديات) تحت وسادة المريض اذا وجده على حال شديد من الفقر ، فلا يدري احد عن احسانه الا بعد ذهابه ، بل انه ليسوؤه ان يسمي هذا وغيره من تصرفاته ، احسانا وعطفا بل يستغرب هو شكر الناس له وتقديرهم لما يعاملهم به ، فهذا الاحسان لا يكلفه شيئا ، لانه لا يتصنع فيه ، ولا يبذل في سبيله مجهودا ، انما هو مفطور عليه ، كما يفطر المرء على حاجته للغذاء ، بل اصح من كل هذا ، انه كان على جانب من السذاجة الحكيمة التي تحول دون ادراكه ان هذا الذي يعمله يسمى احسانا ومعروفا .

اما متعته الوحيدة ، فهي ان يسير وحيدا في الجبال الجرداء ، عندما تكون الريح عاتية مزمجرة ، ويسمح هو للاشباح السوداء ان تنتصب من اعماق نفسه ، وتتعانق مع اشباح الجبال الكئيبة .

ويقبل هو عندها على هذه الوحشة السوداء ، كما يقبل الشريب على كأس من الخمرة المعتقة ، فهذه الجبال الهائلة ، والرياح النائحة ، تغذي يأسه الذي يؤمن به ، وتتفاعل مع نفسه اشد التفاعل ، بل انه واياها شيء واحد من مادة واحدة . . . ثورتان يائستان مسيرتان في الكون المتحرك دون اي غرض .

وعندما يعود الى البيت تظهر في عينيه نظرة شاردة غريبة كأنما هو سائح غريب ، يدخل بيتا لا يعرفه ، ولكن اذا ما جاء الصباح تكون آثار الرحلة الى الجبال قد تبددت ، الا ما كان من امر فترات قصيرة من الشرود والحنين تستولي عليه اثناء عمله في العيادة .

دق جرس التلفون في غرفة الطبيب بينما هو يعالج مريضاً لدغته افعى ، وبود الطبيب ان يهمل الجرس ليستمر في اسعافه لولا هذا الهاتف في قلبه ، يأمره بتلبية نداء الجرس ، وسمع صوتاً عميقاً بعيداً يقول (مستشفى الجامعة بالقاهرة . هل هنا عيادة الطبيب أنور) .

وهو لا يدري ما الذي جعله يجيب (نعم . ولكن ولدي ماله؟)

« انه مريض . وحضورك ضروري »

وردد « ولدي ... مريض ،، ما علته ؟ »

« ظهرت عليه أعراض داء السحايا »

« عفوك . . . يا الله »

وكانت فترة من الفترات المعدودة التي اختفت فيها الاشباح من نفس الطبيب ، واختفى معــه زهده في الحياة ، وتسليمه لارادتها . « ولده الشاب .. البـالغ من العمر واحداً وعشرين عاما ، مريض ..مريض بهذا الداء اللعين »

ومادت الارض به ، وهبت في قلبه نار متــأججة ، وذكر ولده .. قامته الفارعة ، شعره المجعـد ، عينيه المتوقدتان . فطنته وذكاؤه . مرحه وصفاء روحه .ايفقده ؟ ولكن هل ابنه ملك له حتى يدعي بفقده . . اذن فليقل ، ايختفي ابنه من الحيــاة ، ويختفي معه اشراق وجهه وصفاء روحه وهو لا يزال متعلقا بهذه الحياة راغبا فيها ؟

وعادت النار تتأجج في قلبه ، وشعر بقسوة الحياة ولكنه لم يكن شعور اليائس فيها المستسلم لأحكامهـــا ، بل شعور الحانق عليها ، المحارب لها .

لماذا . . لماذا يمرض ابنه بمرض شنيع مثل هذا وهو لم يقترف ذنبا ؟ وسخر من نفسه ان يجدهـا تفكر بالثواب والعقاب ، فالحياة لا تثيب ولا تعاقب ، انما هي تحصد كما تشاء . وسمع انيناً مرا وصوتا يقول :

« ارجوك يا دكتور . . . الألم شـــديد » وتلفت حوله ، وعاد الى محيطه ، ورأى الرجل الملدوغ يتلوى من الألم ، ولكنه وجد نفسه عاجزا عن ان يصل اليه ، ثم تغير شعوره نحوه . اراد ان يصيح به ، ويطرده ، فمصيبته اعظم واجل ! ونظر اليه ، فاذا به يقول . .

« الله يمد يمينه ، ويشفي ولدك يا دكتور »

وأجاب وكأنما هو ينتظر قولا ُمنزلا (وهل من المعقول ان يشفى ولدي يا حميد ،)

(الله قادر على ان يحيي العظام وهي رميم)

وتعلق به (أو متأكد انت من هذا يا حميد)

وجاء الجواب سريعا حارا (وأي شقاء يعيش فيه اولاد آدم ان هم كفروا بارادة الله ؟)

(أمانة ردت الى باريها . اما التعساء فهؤلاء الذين لا رجاء لهم في الحياة الاخرى . ولكن انت طبيب ، وتعالج الناس . . . أليس بامكانك ان تعالج ولدك)

هو طبيب . . . لقـد نسي ذلك . . لم يبق منه الا صفة الوالد الذي اسقط في يده .

(حميد ، لا تتكلم عن الطب . . .تكلم عن الله)



(انه رؤوف رحيم)
(وهل سيرأف بولدي)
(اتكل عليه يا دكتور)

. . . .

وبعد ساعة كانت سيارة الطبيب تنهب الارض نهبا الى القطر الشقيق ، بينما كان هو نهبا ليأس شديد ممزوج بمرارة لا حد لها ، وبعد ساعات كثيرة مضت في الطريق دخل مستشفى الجامعة ، واستقبله الطبيب المسؤول وحدثه عن حالة ولده ، وسير المرض. حدثه حديث الزميل للزميل ، اما هو فكان يسمع ولا يفهم . واخيرا سأله طبيب الجامعة عن رأيه واقتراحه ، ولكنه نظر اليه نظرة فارغة ليس فيها معنى ، وقال بعد لحظة . . (أيتألم كثيرا ؟ دعني اراه)

وجالت نظرة حزن في عيني طبيب الجامعة وأجاب (ان وعيه لطبيعة مرضه تزيد في المه ، هنالك بارقة امل وحيدة يا دكتور)

وارتعشت شفتا الطبيب الوالد (اين هي البارقة المقدسة ؟)، انا أؤمن بان الله رؤوف رحيم) وتذكر بسرعة ان هذه الجملة رددها حميد ، وانها ليست من عنده ، وهو يشعر الآن بحاجته الى حميد اكثر من حاجته الى طبيب الجامعة — رغم اخلاص

الاخير – اذ ليس في عيني طبيب الجامعة الثقة والايمان الموجودتان في عيني حميد ، فهذا الطبيب مثله يعاني ما يعـــانيه هو من شك وضعف ، اما حميد فهو جبار يستلهم قوته من الله . وجاء صوت طبيب المستشفى . . (الى اي حـــد يوافق حضرة الطبيب على سحب السائل من النخاع الشوكي ، للتعرف الى درجة كثافته ؟)

« اني اوافق على كل ما تقترحه »

« وحتى على اعطاء البنسلين في النخاع الشوكي مباشرة ؟ »

« نعم »

« يجب ان نشكر الله ان هنالك شيئاً يسمى بنسلين »

ولكنه قال في نفسه « يجب ان نشكر الله انه يلهمنا الايمان »

. . . .

وجلس الوالد قرب سرير ولده الشاب . كان ينظر اليه بلهفة وحرارة يذكيها الم المعرفة المتبادل بينهما بطبيعة المرض . لقد احس ان حبه لولده كجبار عظيم يسيطر في اعماق نفسه . انه حب ممزوج بالأسى واللوعه ، ولكنه على كل حال حب عظيم يتحكم في كل قوى نفسه ونواحيها ، فهو الحب الذي يجعله يقول « ان في عظمته وهوله عصارة الحياة ، وانه ان كان سيؤمن يوما مـــا بان للحياة اي قيمة او غاية ، فهي تستلهم قيمتها وغايتها من مثل هذه

العاطفة التي تستعر في قلبه ، ولكن أليست مهزلة محزنة ان يذعن هو لمثل هذا الايمان بالحياة ، في ساعة من ساعات هزيمة الحياة ، وانتصار الموت والفناء .

اما الولد فقد شعر بهذا الذي يمر بخاطر والده ، وافزعه ما يعانيه والده من جحيم ألمه وقال « والدي .. ترفق بنفسك .. فحتى لو استرد الله وديعة الحياة .. فليس في الموت ما يدعو الى اليأس . لقد واجهت الموت وعرفته . انه عراك .. ثم انعتاق . ان الموت هو الآخر مجهود .. هو لا يحول دون اتصالك بي ، وقربك مني ، انما يأخذ هذا الاتصال لونا ثانيا قد يكون اقوى واعظم .

. . . .

واجريت العملية ، وحدثت المعجزة ، وشفي ابنه . وفي الصباح عندما كانت الطيور تغرد في حدائق المستشفى ، كانت الاشباح خافتة صغيرة متوارية في قلب الطبيب. ان الحياة جميلة .. الشمس الذهبية .. والازهار الندية ، ووجه ولده ، وحرارة يده التي اودعها يد والده . ان هذه جميعها تجعل قلبه يخفق بسعادة لم يكن يعرفها من قبل .

ومكث مع ابنه اياما أخرى ، حتى استعاد الولد صحته ، واطمأن هو على سلامته ، ثم عاد الى مقره . . . الى بيئة وعبادته

وكذلك الى الجبال الجرداء ، حيث تصفر الريح عاتية ساخرة .

وفي احد الايام دخل الى العيادة شاب قروي .

« ما اسمك ، »

« سلامة ابن حميد الشيخ »

« أأنت ابن حميـــد . . . وابن والدك ، اني حريص جدا على رؤيته »

« والدي . . . اعطاك عمره يا دكتور »

« أمـــات والدك يا سلامه ، كنت اظن ان الموت بعيد جدا عنه »

« الموت على رقاب العباد يا دكتور . . . انه حق ، فالناس ودائع ترد الى باريها . الحمد لله »

« والدك اورثك هذا الايمـــان الكبير يا سلامه . الحمد لله على كل حال » .

القبس

في احد الايام بينما كنت جالسا الى صديقي نايف ، شعرت بميل شديد لان أسأله عن هذا الذي طالما أثار دهشتي واستغرابي. وفجأة سمعت نفسي اقول . .

« نايف ، اخبرني لماذا تركت خطيبتك «منى» . ان ما يدفعني لمثل هذا السؤال هو واقعيتي ، فلست افهم كيف استطعت ان تستغني عن بائنة قدرها ثلاثون الف جنيه ! »

ونظر الي نايف ، وقد تعقد جبينه ، كأن أطيافا قاتمة تمر بمخيلته . ثم اجاب ببطء « حديث مثل هذا يثير في نفسي ذكريات الصراع العنيف الذي عشت فيه » ثم اضاف « والذي لا ازال اعيش فيه »

قلت — تعني أن تركك لخطيبتك كان تجربة قاسية » ؟ !

واجاب صديقي فورا « لا يا وديع . لقد نزعت الخاتم من

يدي كما أنزع ربطة عنقي « لقد اكتشفت سريعا أن علاقتي بها ستنتهي حتما الى مثل هذه النتيجة . . انت لا تفهمني . . لقد اصطدمت في تلك الفترة من حياتي بحقيقة كبرى وهي ان حياتي حقيرة ، وآمالي وضيعة . . وكياني يتمرغ في الطين »

وضحكت عندها « تريد ان تقول لي ان مثاليتك هي التي حالت دونك ودون الثلاثين الف جنيه ، ودون فتاة تزين بيتك الجميل ؟ انا لا احسدك على هذا الاكتشاف الخطير ، الذي افقدك هذه الثروة الفاحشة » .

« وديع ، استمع الى قصتي ، انت تعلم اني حزت قسطا من الثقافة لا بأس به »

فقلت – « اعلم هذه الحقيقة . كأن المتعلمين في هذه الحياة يظفرون بشيء غير الحرمان والشقاء ، وغير ان يفطنوا الى عدم عدالة الحياة .

ولكن صديقي لم يعلق على اشارتي وانما استمر قائلا : « وعندما عدت من انجلترا ، اخذ والداي يزينان لي فكرة الزواج ، ويحببانني « بمى » . فخطبتها وأنا اعتقد أن الايام ستخلق بيننا حباً والفة وتفاهما . وأخذت أتردد على بيتها ، وغايتي الاولى ان اتعرف على صفاتها ، وليزداد ميلي اليها . ولكني ما

أكاد اجلس اليها حتى تشرع تحدثني عن المال والثياب والمتاع ، ثم على الثياب التي اشترتها مؤخرا ، وتعدد اثمانها ما بين ثياب السهرة ، ومعاطف الفرو ، والمجوهرات الثمينة . وكان كل هذا محتملا يا وديع لو كان الى جانبه شيء آخر . بل لقد كان الى جانبه شيء آخر ، فهي تختار أرخص الافلام لنذهب ونشاهدها ، ونحضر أتفه الاجتماعات ، وابعدها عن الذوق والادب ، اما اصدقاؤها وصديقاتها فأشخاص تافهون مغروورون ، وجدت ان متعتها الوحيدة هي ان اسير الى جانبها ليقول الناس : هذا خطيب منى!

لقد جاهدت وانا ابحث في أعماق قلبها عن شيء أطمئن اليه .. شيء يشعرني انها كائن حي .. فلم اجد شيئا . كنت احسب ان جمالها سيثير في هذا الشيء ، وما اسرع ما وجدت انه جمال ميت . لا قلب ولا عقل بشريين وراءه ... هو جمال الدمية في نافذة المخزن ، وجمال صورة الاعلان في الصحيفة . وعندها قمت بمحاولة أخرى ، هي ان اوجهها وألفت نظرها للاشياء القيمة . ان اثير فيها حباً نحو الجمال ، ان اجعلها تقدر اللوحات الفنية ، والكتب القيمة ، والافلام الجيدة ، والصفات النبيلة في الناس ، فاذا بي اصطدم باكتشاف آخر ، هو جهلها المطبق بكل شيء ، فهي لا تعرف من الكتب والموسيقى الا اسماءها . وهنالك امر واحد يسيطر

على حياتها ، وهو كيف يمكنها ان تعرض مظاهر ثروتها ، وتفتخر بها ، وبي ايضا ، لأنها اعتبرتني ملحقاً لهذه الثروة . وعندها يـــا وديع فقط .. عندها اكتشفت اني اشتريت عبوديتي بثلاثين الف جنيه » .

وأجبته قائلاً : « ولكن يا نايف .. الا تعلم ان كل هذا الجنس الذي يصفونه باللطف والرقة لا تسيّره الا مثل هـــذه الغايات ؟.. ماذا تريد المرأة يا عزيزي؟ تريد ثوبا جميلا ، وسهرة ممتعة ، وزوجا لائقا ، وبيتا فاخرا .

اتظن يا نايف ان بامكان المرأة ان تشاركك افكارك العظيمة وتأملاتك في الحيـــاة ومصير الانسان ؟! نظرية خاطئة ؛ فاننا – معشر الرجال – يفزع في النهاية بعضنا الى بعض لبحث الحقائق الكبرى ، ولكن بعد ان نتحقق بشيء من المرارة والالم انه من العبث ان نأخذ بيد المرأة لترتفع الى مستوانا !!! ما اصدق من قال « المرأة شرّ لا بد منه » .

وطال صمت نايف ، ثم قال « ليتني بقيت اعتقد مثل هذا »

فقلت « ماذا تعني »

« اعني اني وجدت برهانا فنّد لي هذا الرأي . »

وهنا أحسست ان « نايف » قد وصل الى عقدة الكلام فصمتُ

احتراما لهذا الأسى الذي بدا في قسمات وجهه ، وكنت اشعر بالمجهود الذي يبذله للاستمرار في الكلام ثم قال : « لقد وجدتها يا وديع . »

« من هي ؟ »

« الفتاة التي كان لها قلب كبير ، ونفس حساسة ، وهي برهان ساطع على ان المرأة ليست كما وصفت ، انما هي مخلوق يلتهب في قلبه نار ونور . انا لا ازال اذكر ذلك اليوم الذي كانت جالسة فيه في غرفة الاستقبال في بيت « منى » ، بحيرة واضطراب ، في ثيابها البسيطة ، وكانت غرفة الاستقبال تعج بهذا الشباب المترف والفتيات المثريات . لقد دعوها لانهم سمعوا بمهارتها في العزف على البيانو ، ولانهم يريدون ان يوهموا أنفسهم بانهم يقدرون روعة الموسيقى . ولكن ... يا لوحشية هـذه الطبقة التي تدعى الارستقراطية يا عزيزي . لقد دعوها الى بيتهم الفاخر ، ولكنهم أهملوها في ركن من اركان الغرفة . ولم تجد احـداً يحدثها او يحاول ان يتعرف اليها . اقتربت منها ، فاذا بها روح جميل . عدت يا وديع الى بيتي ، وقد ظهرت لي صورة مجتمعنا واضحة .. فهذا هو المجتمع الذي نعيش فيه . شباب مثرٍ يقضي زهرة العمر يتصيد نظرات الفتيات ، وفتيات بدورهن يقضين العمر يقتنصن

الازيا. والمجوهرات . اما الطائفة الحساسة من المجتمع ، فتقضي العمر بالاطهار . تجلس في الزوايا مرتبكة حائرة . وتضخمت الفكرة في رأسي واتسعت ، فاذا انا اعيش في هذا الصراع الذي اشرت اليه في بداءة الحديث ، فقد وجدت نفسي أنتمي الى هذه الطبقة قد لا اكون انتمي اليها بعقائدي وثقافتي ، ولكني أنتمي اليها بشخصيتي الاجتماعية التي أظهر بها امام الناس ، فانا مثلهم صلف متكبر ، اعيش عــلى هامش الحياة ، ولا تستثيرني فكرة كبيرة .

وفي صباح اليوم الثاني نزعت الخاتم من يدي .

وصمت صديقي . أما انا فقد أبت عليّ واقعيتي الا أن اقذف بجملة اخرى .

« وماذا حدث للفتاة الاخرى ؟ »

فاجاب — « لقد تعرّفت اليها » .

« وهل وجدت فيها هذا الذي تنشده ؟ »

فأجاب « بل اكثر مما أنشده . وديع ! هل نظرت يوما الى شعاع الشمس الذي يخترق غرفة مظلمة ؟ » قلت وانا ابتسم « لا شك اني رأيت منظرا مثل هذا يا عزيزي نايف »

« وهل مررت يوما بالبنفسجة التي تنمو برفق وهدوء ولها

عطر شذيّ ، ولكن دون ان يدري بها أحـد ؟ قلت : وهذا منظر لا بد ان اكون قد رأيته ايضا .

قـال « بل اكثر من هذا . . . أشعرت يوما بعاصفة تجتاح حياتك ثم تترك فيها ربيعا دائما ؟ »

وعندها اجبت « آه . . . يا إلهي . . . هـذا كثير . . . هذا فوق استطاعة المرأة . الله وحده هو الذي يقدر على هذا . . انت تتكلم كلاما صوفيا . وانت تعلم اني لا ادين بمثل هذا فيما يتعلق بالمرأة . انت تحبها . . . وهذا الحب هو الذي يجعلك ترى فيها كل هذا .

فأجاب « هو امر اكثر من الحب . انك بواسطته تتعرف الى الله وتدرك الجميل ، ويرتعش قلبك بسعادة عميقة . وديع . . . الارواح جنود مجندة ، واذا تعارفت وتآلفت ، فقد ظفر الناس بالقسط الاكبر من حقيقة الحياة وكنهها . »

« ولكن اين هي ؟ لمـــاذا لا تدعني اراها . . بل لماذا لم تتزوجها ؟ .

« لقد كانت تعلم دروس الموسيقى في مدرسة داخلية »

فقلت « كانت تعلم » ، واين هي الآن ؟

« اتريد ان تسمع المأساة ؟ ، في احد الايام قدمت الي تطلب

مني الا اعود اليها ، لأن أعراض السل قد ظهرت عليها ! . . . ».

وصمت طويلا . وكذلك انا لم ادر ماذا اقول ، ثم انتفض وقد بدا على وجهه حزن وأسف .

« ولكني لم اتركها يا وديع . . . لم اتركها لحظة واحدة ما كان ذلك بامكاني . انا مدين لها بحياتي الجديدة . . . مدين لها بانطلاقات النفس ، واشراقات الروح » . اما انا فنظرت بأسف شديد الى هذا الفتى الذكي الحساس ، الذي ترك فتاة صحيحة الجسم مثرية ، وتعلق بفتـــاة مصدورة . ثم قلت وانا أعرف الجواب :

« واين الفتاة الآن ؟ »

« في لبنان »

ومرت فترة طويلة ثم قلت : « هيا بنا ياصديقي نسير قليلا في الهواء الطلق» وسرنا صامتين. ولكني كنت التفت اليه احيانا، فاجده شاردا لا يرى ما حوله . وبعد مسير طويل عدنا الى المدينة وسار كل منا الى بيته . ولما دخلت غرفتي أخذت اصلي قائلا . « اللهم اجعلني واقعيا أعيش على الخبز الكفاف ، وأستمتع بالحسن والجمال وأتذوق نعمة المال. اما انطلاقات النفس وهمسات الروح. فاللهم ابعدني عنها ، فلا طاقة لي عليها . اللهم اشف فتاة صديقي ، فهو متألم حزين » .

ومرت ايام طويلة لم ار فيها صديقي في المنتزهات والاندية . فذهبت الى بيته أسأل عنه .

فقالت لي أمه « انه ذهب الى لبنان » . وعدت وانا اقول « نايف يقامر ... نايف يقامر بحياته وسعادته وشبابه ... انه يتابع حلما اهوج » .

ومرت ايام اخرى ، وعدت الى بيته أسأل عنه فنظرت الي أمه بحزن واشارت الى الغرفة المغلقة « انه في الداخل ... لا يأكل ولا يشرب ... ولا يقابل احداً . « لا ندري ماذا حدث له .. لعلك تستطيع ان تسري عنه » وقرعت باب الغرفة .

« نايف ، افتح ، انا صديقك وديع . »

وفتح نايف الباب .نظرت الى وجهه فكأنه كبر عشرة اعوام، لم يكن من ضرورة لسرد الحوادث . وبعد فترة صمت قلت « نايف . . تشجع ، الحياة لا تلد الا مثل هذه المصائب ... انت كنت دائمًا تتوقع موتها » .

وأجاب وفي صوته رنة حزن شديد . « نعم ... يا وديع ولكن فراقي لها لم يكن كمن ينزع ربطة عنقه ... لقد أحسست ان حياتي أنتزعت من جذورها .. واطاحت بها ريح عاتية ، الى بحر مضطرب من الحيرة واليأس والحرمان ، ولكن .. هذا

ليس كل شيء .. حقا اني حائر وحزين ولكنني أدخر في قلبي ايضا كنزا ثمينا ، أدخر في قلبي جمرة من النار . انها تحرقني .. ولكنها تضيء حياتي ايضا ... انت لا تعرفها يا وديع ، والا كنت تفهم سر جزعي الشديد على فراقها ، كل همسة من همسات النسيم كانت تعني عندها شيئا ، وكل لحن من الحان الوجود كان له صداه في قلبها الحساس » .

« نايف ، قم معي .دعنا نسر قليلا في الشمس والهواء . »

وصمت لحظة ثم قال : « نعم ، هيا بنا ، فانا اريد ان أرى الشمس وهي تهوي الى البحر ، ففي نفسي يقين انهـا هي ايضا ترقب هذا المنظر من العالم الآخر . »

وسرت معه في شوارع المدينة ، ولكنني كنت اشعر انـه لا يرى شيئا ، أو على الاصح ، لا يرى شيئا مما حوله . انما هو يرى بعين مخيلته جبال لبنان المنتصبة ، وعلى احدها أقيم مصح صغير ، وفى احدى غرف المصح فتاة مستلقية على سريرها تلفظ النفس الاخير .

ولكني انصرفت عن متابعة ما قد يكون متمثلًا في مخيلته ، عندما رأيت عددا من السيارات الفاخرة واقفة عند باب الكنيسة الفخم ، ورأيت العروسين يخرجان من الباب ، ليركبا السيارة

المزينة . وحدقت في العروس . انا اعرف هذا الوجه ، أنهـا منى .. والى جانبها فتى انيق المنظر . « منى » خطيبة نايف الاولى .

واختلست نظرة ثانية الى صديقي ، عرفت منها انه لا يزال شاردا ، وانه لم ير شيئا . رأيت الناس وهم ينظرون الى نايف بدهشة واستغراب ، بل وهم يلاحظون قده النحيل وشعره المشعث . امسكت بيد صديقي وغيّرت اتجاهنا ، فتبعني كأنه لم يلحظ اننا غيرنا اتجاهنا . ثم أنّ أنّة شديدة كأنما يستفيق من مخدر شديد التأثير ، وانتبه فجأة وقال (أسرع فقد تغيب الشمس قبل ان نتمكن من رؤيتها ....)

وحيدة

انها ليلة عيد الميلاد... ونظرت الى جدران غرفتي العارية ، ثم حولت نظري الى المقعد ذي الغطاء البالي ، ثم الى الطاولة التي انتشرت عليها بعض الكتب والاوراق ، وبعدها الى السرير الذي يغطيه حرام قديم ، قد اصبح مع الزمن نحيلا رقيقا . ولما جاء دور المرآة ذات الاطار الخشبي المقشر ، عكست ايضا وجها شاحبا متعبا .

وعاد الصوت الشامت يرنّ في اذنيّ (انت وحيدة . . . وحيدة ، لا تحاولي ان تتأملي أثاث غرفتك القديم ، لتنسي وحدتك) .

وعندها زجرت دموعي بعنف وشدة ، وعزمت ان اواجه الصوت . (نعم انا وحيدة ، ولكن أهو ذنبٌ أم اساءة أن يكون المرء وحيدا ؟ وعلى كل حال فالوحدة ليست امراً جديدا عليّ . فها هو العام الثاني يزمع على الانقضا ، وبانقضائه يكون

قد مر على وحدتي عامـان كاملان . فلماذا ترفعين صوتك عاليا ايتها الحقيقة في ليلة الميلاد ؟ !

لقـد قلت لك مرارا أنا لا ابالي الوحـدة بل إنها تجعلني وانا اقتحم مملكتها الصامتة ، احس بشيء من البطولة والمغامرة . انا لا انكر ان بها شيئا من الكآبة واليأس ، ولكنها كآبة جميلة ، شبيهة بشعاع القمر الذي يقتحم ظلام الغابات)

وقال لي الصوت (نعم ، هذا كلام جريء ومعقول . ولكن الامر في ليلة الميلاد مغاير لهذا فاي أسرة لا تجتمع في العيد لتسمر وتوزع الهدايا على الاطفال ، واي قلب مهما كانت عقيدته لا يملكه شعور العيد وجو العيد بل رائحة العيد ؟ . وهناك في الفنـادق الفخمة ، تعزف الموسيقى وتتـألق الانوار ، وتعبق العطور ويرقص القوم . بل انظري من النـافذة ، لتبصري الشوارع المضاءة والدكاكين المزينة ، والسيارات الفخمة تنساب فيها .

وفي الكنـائس ترتفع الصلوات ، واجواق الترتيل ، فيشعر النـاس بعظمة الذكرى وفرح الخلاص ، ومع التراتيم الميلادية تنسـاب ذكريات واجواء قديمة عن اقوام من الناس ، كانوا في يوم من الايام يرتلون وينشدون نفس هذه التراتيم .

قلت لكِ ان للعيد عبيرا خاصا ، عبيرا قديما ممزوجاً برائحة

الصنوبر والشموع ، وله ايضا جوا خاصا ، تميزه الثلوج المتساقطة ، والرياح العاصفة والامطار المنهمرة ، وهذا كله يستولي على الناس في ليلة الميلاد ، فيذعنون بغبطة وسرور لسلطان العيد ، حتى الملائكة في السماء تقيم افراحا ، وترسل الشدو الجميل . وانت ... وانت وحيدة » .

وقلت للصوت .. « انت تعلم جيدا ان كل هذا لا يهمني ، ولكنك تضرب على وتر حساس حين تشير الى الحياة العائلية . فقلبي يلتهب حين اذكر والديّ اللذين يرقدان الآن في المقبرة البعيدة خارج المدينة ، بل ان نفسي ترتعش حين اذكر الريح التي تهب عند القبر ، فيميل الشجر العاتي بعنف وشدة ، وكأنما هو يحنو على القبر الذي أحببته بكل ما في نفسي من مقدرة على الحب . ولكن اسمع ايها الصوت ، فانت لن تنال مني بالرغم من كل هذا فقد علمتني امي ان شفقة النفس هي اسوأ انواع الشفقة ... هي أنانية سلبية ... وانا لن ابكي . ولن انتحب مع اني اشعر بميل شديد الى الدموع » . وقرع الباب ...

ولما فتحت الباب كانت جارتي جميلة واقفة امامي ، وكأنها نموذج لاحد مظاهر العيد .. « مَن ؟ جميلة ؟ تفضلي ، ».

وانسابت جارتي بثوبها السواريه ، ومعطفها من الفرو الثمين ،

ترافقها رائحة «الجويا» القوية . وقالت جارتي باستغراب .. ـ ماذا الم تلبسي ثيابك بعد ؟ ألست ذاهبة الى مكان ما ؟ »

ولست ادري ما الذي دفعني الى القول « لقد عدت متاخرة من المكتب ولم اباشر بعد لبس ثيابي » .

« والى اين ستذهبين » ؟ .

« آه ... ستمر بي بعض فتيات النادي ، وسنذهب معا الى قاعه النادي ، حيث ستقام حفلة بسيطة تحت رعاية القس سليم وزوجته .

ووقفت جارتي امام مرآتي القديمة ونظرت الى وجهها ، ولاحظت بدوري العناية الفائقة التي بذلتها صديقتي في تزيين نفسها ثم التفتت وقالت بضجر .. « لماذا تأخر اخي اسعد ! فندق « الامل » سيكون على ابهى مظهر الليلة .

ولكن . . . ناديا أأفشي لك سرا ؟ اتعلمين من عاد مؤخرا من اميركا ؟

(من ؟)

(الدكتور كمال السعيد) .

ولما لم يبد في وجهي أي تأثر لهذا النبأ المهيج ،أضافت جارتي قائلة . .

(انت لا تعرفين الدكتور كمال ؟) .

(لا)

(آه . . . انه بهي الطلعة ، ثري . . . ابن عائلة . . . مفرط الذكاء ، وقد سافر من عامين الى اميركا ليختص بالامراض العصبية ، وقد قالت لي احدى صديقاتي انه ربما يحضر الحفلة الراقصة في فندق الامل . ولكن ها اني اسمع هاتف سيارة اخي . وداعا يا عزيزتي اتمنى لك وقتا طيبا .)

(وداعا) واغلق الباب ، وانسابت آخر هبات رائحة الجوبا .

وجلست . آه ، لماذا قدمت ؟ التعكر عليّ صفو ذكرياتي ؟ وهنا تمثلت طيف امي وهي تعاتبني لتعلقي الشديد بالحزن والكآبة .

وبعد لحظات رأيتني البس ثيابي وانزل الى الشارع ، وكانت الأنوار تتوهج فيه ، فكأنما الساعة وضح النهار ، اما الطقس فكان شديد البرودة ، وان كانت السماء صافية .

الى اين سأذهب ، وسرت في الطريق العام حتى وصلت الى مفترق الطريق ، وانا اسمع الترانيم الميلادية تتجاوب اصداؤها في كل مكان من محطات الاذاعة ، وتذكرت عجوزا مسنة تعيش عند منعطف الشارع الذي وقفت قبالته . « آه . . . انا اذكرها

من ايام مدرسة الاحد ، فقد كانت تأتي كل احد وهي تحمل عصا وكيسا من المخمل الاخضر المقلم وقد وضعت على رأسها طاقية من الدانتيل الكثيف ، كثيرا ما كانت تثير ضحكتنا ونحن صغـــار ، ولكن العجوز لم تعد مع الزمن تستطيع التعليم في مدرسة الاحد ، فكنت اقوم انا بالتعليم عنهـــا ، ولكن هيئة المدرسة كانت تذكرها في المناسبات فتخطار المعلمة طالبا وطالبة ليذهبا مع القس والمعلمة ليقدموا هدية للسيدة حنة .

وسألت مرة عن تاريخ حياتها فقالوا لي انها تزوجت من زمان، ولم يرزقها الله ولدا ، ثم توفى زوجها وعاشت وحيدة .

« وحيدة » وارتجفت من الكلمة وانا اسير نحو بيتها .

وقرعت الباب ، وسمعت صوتها النحيل : « من » .

« ناديا » ومر وقت طويل حتى فتحت لي الباب « من ؟ . »

فقلت ثانية « انا ناديا »

« آه... ناديا ، جميل منك ان تزوريني في ليلة الميلاد ، بل اني في الواقع لم اكن انتظر ذلك منك . »

وكانت السيدة حنة جالسة بالقـرب من نار متوهجة ، وعن يمينها راديو صغير كان قد أهداه اليها احد اقربائهـــا المثريين ، ليكون تسلية لها لانها لا تتمكن من الخروج ، وكانت تضع

شالا كبيرا من الصوف الاحمر الداكن على كتفيها . وقلت في نفسي . . « الوحدة والشيخوخة تنسجمان احسن انسجام . متى أصبح عجوزا ؟ » ودفعت اليّ السيدة حنة بكتاب ترتيل لاشترك مع المذباع في ترتيل « في الدجى والسكون » واخذت ارتل معها ، وكنت اسمع صوتها النابي الرفيع كأنه صوت صرير التنك . ولما انتهت الترتيلة قالت لي السيدة حنة . . « انا اشعر باستياء كبير من تصرف بنات اليوم ، فهن يقضين ليلة العيد في الرقص والغناء اما ميلاد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح فلا يعني عندهن شيئا . . . ولكن انت يا ناديا انت لا تنتمين الى هذه الطائفة ، فانا اعرف انك ابنة طيبة من أيام مدرسة الأحد » .

ولم اشأ ان اخيب ظن السيدة حنة بي ، فبقيت صامتة استمع الى عظة القس من المذباع . واخذت الكلمات تنفذ الى قلبي رويدا رويداً «الحياة الجديدة..وما تحمله رسالة الميلاد من ميلاد روحي ، وتجديد في بناء النفس البشرية — وانتهى القس من عظته ، وبقيت انا غارقة في بحر من الافكار — المرارة التي اعيش فيها — الثقة التي فقدتها في عدل الحياة . . . ثم نبهني الصوت الرفيع « يا بنيتي لقد جاءتني هذه الكعكة ، واحب ان اعدّ لك فنجان شاي » .

فاسرعت الى القول .. « لا ، يا ست حنة ، ان كان لا بد

من الشاي فاسمحي لي ان اعمله ... اكون شاكرة لك ذلك »

واسرعت الى ركن من الغرفة جعلته الست حنة بمثابة مطبخ صغير ، وما اسرع ما انهمكت في اعداد الشاي ، وكان سهلا علي ان استدل على مكان الادوات ، فكل شيء مرتب في مطبخ الست حنة . ووضعت الماء على البريموس وعدت الى مجلسي انتظر ريثما يغلي الماء .

وعندها قرع الباب .

. . . .

واسرعت لافتحه ، وكان الاستغراب قد بدا على وجه السيدة حنة لقرع بابها مرتين . واذا بي امـــام شاب طويل القامة ، اسمر الوجه .

« مساء الخير ! هل السيدة حنة هنا »

« نعم » ودخل الفتى وراعني وجه السيدة حنة وهي تحدق به كأنها تريد ان تتأكد من شخصيته . وسار هو حتى وصل الى مجلسها باسما . ولما اقترب منها هتفت بصوتها الرفيع الذي خنقته المفاجأة « كمال ؟ . »

« نعم ، بعينه »

وقامت السيدة حنة من مجلسها ، ومدت ذراعيها لتعانق الشاب

الذي دخل الغرفة . ولم استطع انا الا ان الحظ المجهود الكبير الذي بذله الشاب وهو يسمح للعجوز ان تقبله وتضمه اليها .

« ما اجمل هـــذه المفاجأة يا كمال . متى عدت يا خالتي ؟ » ولكن كمال التفت اليها وقال :

« ولكنك لم تعرفيني على الآنسة . »

« آه ... حقاً ، انها الآنسة ناديا سلامة . قدمت لتؤنس وحشتي . والتفتت الي .. « انه ابن اختي الدكتور كمال السعيد . »

وهنا مد الشاب يده محييا ، ومعربا عن شكره لزيارتي خالته في ليلة الميلاد .

وبقيت انا صامتة دون ان اصرح بان قدومي كان ليخفف عن كآبتي انا ، وسمعت صوت الماء الغالي يدعوني ، فوجدت أن افضل حل لموقفي الحرج ان اهرع الى الشاي اتلهى باعداده .

وسمعت صوت السيدة حنة وهي تثني علي ثناء جميلا ، أما انا فقد تذكرت الثوب الجميل ، والشعر المصفف ، بل رائحة الجويا .. ورنت في اذني الكلمات الثلاث .. « بهي ، ذكي ، ثري » وشعرت كأني ارتكب خطأ اذ تجمعني الصدفة بهذا الشاب الذي كان ينتظره البعض في فندق الأمل ، واخذت اقول في نفسي .. « لن تصدق جميلة ان ذلك كان من صنع الصدفة العمياء . لماذا كذبت على جميلة وقلت لها اني ذاهبة الى النادي الرياضي . »

وبعد ان شربنا الشاي واكلنا من كعكة السيدة حنة والحلوى التي جاء بها الدكتور كمال، عزمت على العودة، وشكرت السيدة حنة على حسن ضيافتها . وهنا اصر الشاب على مرافقتي الى البيت نظراً لتأخر الوقت . واثناء عودتي حدثني الفتى عن عيد الميلاد في أميركا ، واهتمام الناس البالغ به هناك . وفجاة قال لي انه يحب ان يتعرف على افراد عائلتي ان كان لا مانع عندي من ذلك .

وجمدت في مكاني ، وشعرت بانه يستحيل علي ان اخبره اني وحيدة ، فانا بذلك اشير الى ناحية خاصة جداً من حياتي ، ولا مبرر لاثارة عواطف الشفقة في شاب غريب في هذه اللحظة . آه.. متى اصل الى غرفتي وأعود الى وحدتي ؟ ولن اهرب منها ثانية ، فانها مهما كانت قاسية ، لن تحرجني بمثل هذه المواقف . واجبت بكلام غير واضح ، وعند البوابة السفلى قلت للفتى : « تفضل »

لا . . اشكرك ، يسرني جدا ان اتعرف عليك .

وسار الفتى . واخذت انا اصعد السلالم ، وكأن في قلبي شوقا شديدا الى غرفتي المتواضعة . ولما التحفت بحرامي الرقيق، واخذ النعاس يتسرب الى عيني أخذت احس بشيء من الاطمئنان ، وكأن وحدتي حصن منيع . حصن منيع من اي شيء ، من اي شيء.. آه... لست ادري ... بل انا لا احسر ان ادري .

ولكنني اذكر جيدا الآن ، اني قبل ان أسرح في مملكة النوم ، سمعت البوابة السفلى وهي تفتح ، وصوت جارتي جميلة وأخيها اسعد العائدين من حفلة « الامل »

. . . .

وفي الصباح دخلت جارتي لتحدثني عن الحفلة الرائعة التي حضرها عدد كبير من القناصل والشخصيات المعروفة ، وبينما هي مسترسلة في حديثها سمعت قرعاً على باب غرفتي . فارتعش قلبي فانا اتوقع احدا .. مع انه ليس من سبب لمثل هذا التوقع . وفي طريقي الى الباب كانت تتصارع في نفسي شتى العواطف والمخاوف والاحتمالات .

انه هو ... وان كان هو فماذا سأقول لجارتي عندئذ ؟ وان لم يكن هو ، فما اوحش غرفتي ، وابرد وحدتي .

ولما فتحت الباب . كان الطبيب واقفاً امامي .

« تفضل »

« لا ، اشكرك . لا اظن اني استطيع ان امكث طويلاً ، انما انا موفد من خالتي لاحمل اليك منها هذه الهدية الصغيرة »

« آه ، انا شاكرة لك ولها كثيراً. لا شك انك تعرف الآنسة جميلة شكري .. والتفت الى صديقتي : « الدكتور كمال السعيد »

وسلمت جارتي على الطبيب ، اما انا فلم أجسر أن انظر في وجهها ، فقد كانت نموذجاً للدهشة الممزوجة بالخيبة والغضب .

وقبل ان يخرج الطبيب كررت شكري لخالته على تلطفها بإرسال الهدية لي ، وعندها طلب مني ان اكرر زيارتي لها ، ووعدته بأن افعل .

ولما خرج احسست اني كمجرمة في قفص الاتهام امام جارتي التي شحب وجهها كثيراً . وقالت جميلة وهي تكظم غيظها :

« هل التقيت بالدكتور في النادي الرياضي ؟ »

« لا ، بل في بيت خالته »

« ولكنك ذهبت الى النادي الرياضي »

« لا ، فلم تمر بي صديقاتي ، فسرت وحيدة في الشارع وساقتني قدماي الى بيت الست حنة . »

« او لم تكوني على علم بقدوم الدكتور الى هناك » ؟

« انها المرة الاولى التي اقابل فيها الدكتور ، بل ان قدومه كان مفاجأة سارة جدا لخالته ، فقد كان فرح المسكينة بقدمه لا يوصف »

« ولكنك لم تفتحي الهدية »

« آه .. يا الهي ، لقد نسيت »

وبيدين مرتجفتين فضضت الورق ، وفتحت العلبة ، وكانت تحتوي على حقيبة من الجلد الثمين مع زوج من القفازات .

وتأكدت صديقتي جدا ان الهدية ليست من الست حنة فهي من صنع امريكا .

. . . .

وفي المساء حدث امر هام ؛ فقد زارتني مدام شكري في غرفتي الحقيرة . وكان هذا تنازلاً عظيماً منها ، فهي لم تدخل الى غرفتي طيلة السنتين ، الا مرتين او ثلاثاً . وبعد ان جلست فترة من الزمن ، رفعت حاجبيها وقالت : يا بنيتي ! ارغب في ان اقول لك كلمة ، ولولا اني اعتبرك مثل بنتي جميلة وأحرص على ما فيه الخير لك ، لما تدخلت في امرك . ولقد لمت أسعد وجميلة كثيرا لانهما لم يصطحباك معهما الى فندق الامل ، ولكنهما اعترضا على لومي قائلين « انك سترفضين تلبية دعوتهما وتفضلين الذهاب مع صديقاتك » اما ما احب ان انصحك به الآن ، فهو ان تراعي جوانبك ، فانت يا ناديا وحيدة ، وليس لك اخت ولا اخ ، ومثلك إن زارها في غرفتها رجل كان ذلك مثارا للمشبهات والشكوك . وليس معنى هذا اني اشك في تصرفك ، ولكن الجيران يا بنيتي لا يفهمون معنى الصداقة البريئة . وما اسرع ما

ستجدين نفسك عرضة لاتهاماتهم واحتقـــارهم ، يؤلفون عنك الشائعات التي تؤذي سمعتك ، وتلطخ مستقبلك ، وانت في غنى عمن يقول لك ان سمعة البنت كلوح الزجاج ، واقـــل كلمة او تعريض تخدش هذه السمعة . ومن رأيي إن عاد الدكتور كمال لزيارتك ان تستقبليه في بيتنا ، فانت كابنتنا ، وبيتنا بيتك ، وفي مثل هذا العمل تحاشٍ لكلام الناس واقاويلهم . يا للناس . ما اكثر كلامهم ، وما اكثر اختلاقهم للشائعات .

ونظرت الى جارتي طويلا ، تأملت جسمها المترهـــل ، وزينتها المبالغ فيها ، وحليها الكثيرة ، وثار الغضب في نفسي ، ولكني كتمت غيظي ، وتعمدت البرود وانا اقول :

« مدام شكري . اشكرك على نصائحك الثمينة هـــذه ، ولكنني احب ان الفت نظرك الى اني في غنى عنها . فقد بلغت سن الرشد ، وهي سن تبيح لي ان اتصرف كما اشاء .

وصمتت مدام شكري ، وهي تنظر الي مبهوتة . وبعد جهد كبير كظمت غيظها وضحكت وهي تقول لي برفع التكليف :
« ناديا ، متى كنت تحسنين مثل هذه الاجابة ؟ انت فتاة طائشة ، والا لكنت قدمت لي عميق شكرك على اهتمامي البالغ بصالحك . وبالمناسبة اذا عدت الى زيارة الست حنة فاخبري جميلة لانها ترغب

في زيارة المسكينة . لقد كانت دائما تأخذها الشفقة عليها من أيام مدرسة الاحد .

ومن ذلك اليوم اخذت جميلة تقول لي كل صباح .

« الا تنوين زيارة الست حنة اليوم ؟ »

« لا . فان عملي في المكتب سيستمر اليوم حتى الساعة الخامسة والنصف . »

وفي اليوم الذي يليه : أهو اليوم الذي سنزور فيه تلك المسكينة ؟

« في الواقع افضل ان اقضي عصر هذا النهار في رتق بعض ثيابي ، ولكن اذا كنت راغبة في الزيارة اليوم فسأؤجل عملي الى الغد .

وهكذا كان ... اما جميلة فقد ظهرت في ابهى زينة ، وقد حملت معها هدية للست حنة ، واكثرت من محادثتها وملاطفتها والاهتمام بشؤونها . وكانت تلتفت في كل لحظة الى الباب ، ولكن لسوء الحظ ، لم يفتح الباب قط الا عندما فتحناه نحن لنخرج بعد زيارة الست حنة .

. . . .

آه ، ولكن انا .. اي نار تلك التي تشب في قلبي . لعلني

لست ادري .. بل اني اخاف مواجهة الحقيقة . و كثيرا ما ادفن رأسي في ذراعيّ واقول « يا الهي ، أنقذني .. انقذني من نفسي فهي غريبة عني ، اخذت تعرف الشوق والالم ، وهي لا تستقر ولا تهدأ ، فهي إما في قمة الفرح والأمـــل ، تعانق الشمس ، وتشرئب الى النجوم ، وإما في قفار من الوحشة والفشل ، ترى كل شيء بارداً صامتا كالرماد .

يا الهي ماذا حدث لي ، فانا احس بقلبي كانه طائر في قفصه ، يقبل احيانا على التغريد والغناء حتى كانه لا يريـد ان يسكت ، وفي بعض الاحيان حزين صامت ينتظر الموت .

انا وحيدة . ولكن وحدتي لم تعد تعرف الهدوء والطمأنينة ، بل تزينها أشعة جميلة ملونة ، كتلك التي تزين حواشي الغيوم وهي في جهاد دائم ، لان تظفر دائما بهذه الزينة المشرقة »

ومرت الايام . وفي صباح احدها تسلمت بطاقة من الرجل الذي جعل وحدتي تستعر وتلتهب وكان مكتوبا فيها :

« ان فرحا ونشوة يمتلكانني حين اذكرك — واني لأذكرك دائما »

منحة طفل

وقفت مديرة القسم المنزلي في كلية البنات تطل من نافـذة غرفتها العالية عـلى ساحة المدرسة ، وهي تحس بضيق وحزن شديدين . وكانت هذه الساعة ساعة حزن و كآبة في حياتها . ليس في هذا العام وهذا الفصل فقط ، ولكن في نهاية كل فصل من كل عام ، ويعلم الله انهـا قضت خمسة وعشرين عاما مديرة للقسم المنزلي في كلية البنات ، تعمل بجد ونشاط حتى اذا حانت ساعـة سفر التلميذات لقضاء العطل الفصلية ، كان يستولي عليها هذا الالم والوحشة والفراغ النفساني ، فحركة السفر ، وضجيج الفتيـات ولهوهن ، وصوت السيارات ، ومنظر الحقائب كان يشعرها بالوحدة والعزلة .

كانت تفرق من الساعة التي تخلو فيها المدرسة الواسعة ، ولا يسمع الا صفير الريح واهتزاز الاشجار ، او صوت الطباخات ،

وقرقعة الصحون في المطبخ .

كان يخيم عـــلى المدرسة شيء رهيب يشعرها انها في مقبرة ، وكثيرا ما وقفت في ابواب غرف النوم لا تجسر على الدخول ، وكأن الأسرة جبابرة تريد ان تنقضّ عليهـــا .

وفي تلك اللحظة التي وقفت فيها ترقب الفتيات ، كانت السماء صافية ، مع ان البرد كان قارساً ، وبدت لها المدينة بقبابها العالية وقننها الرفيعة التي ذهّبتها اشعة الشمس ، كأنها مدينة مسحورة خارجة من الاساطير .

وسمع هدير الباصات فارتعش قلبها ، وما هي الا دقائق حتى خفتت الاصوات وغابت السيارات ، وخيم الصمت عـلى ملاعب المدرسة وحجراتها .

وبقيت الست سليمة تحدق في الفراغ الهائل ، وتذكر هؤلاء الفتيات السعيدات اللواتي ستعود كل منهن الى بيتها – امـــا هي فبيتها هذه المدرسة ، المترامية الاطراف ، الخالية من الاحياء تقريباً . نعم هنالك بيت اخيها ، وستذهب اليه في المساء لتصرف عطلة الميلاد ، بيت اخيهـــا !؟ وتذكرت كم جاهدت في سبيل هذا الأخ .

وقد كانت الست سليمة كبرى أخواتها واخيهـا ، توفى

والدها وهي تقبل على الحياة : فتاة جميلة مثقفة ، مما حببها الي الكثيرين ، فسعوا يطلبون يدها ولكنها احست انها لا تستطيع ان تتزوج وتترك اخواتها وأخاها الصغير ليموتوا جوعا ، اذ ليس لهم اي مورد رزق ، وعليها ان تشتغل لتقدم لهم الخبز والكساء. وتدفق قلبها الصغير يومئذ بهذا الحنان الذي تحسه الاخت تجاه افراد العائلة اليافعين ونذرت انها لن تتزوج ما دام هنالك شقيق قاصر .

وهكذا كان ، وسار افراد العائلة، كلٌ في سبيل، وتزوجت جميع شقيقاتها ، واستقرت كلٌ منهن في بلدة ، ولم يبق في المدينة الا اخوها ، وكان فقير الحال معوزا ، وله عدد من الاطفال تمدهم هي بالعطايا والهبات . وكل هذا كان محمولا ، ولكن الوجه المؤلم في علاقتها باخيها ، كانت معاملة زوجته لها ، فهي لا تذكر انها ذهبت لزيارتها الا وتعود كسيرة الخاطر ، جريحة القلب ، من تصرُف مثير ، او معاملة سيئة ، هذا مع العلم انها لم تذهب قط فارغة اليدين ، بل تحمل اثمن ما تستطيع شراءه ، وأندر ما تقع عليه عيناها .

وهي في هذا اليوم قد اعدت الحلوى والملابس الجميلة لجميع افراد العائلة ، وستحملها هذا المساء ، لقاء ان تجلس مع افراد

العائلة وتحظى بمشاهدت اخيها واطفاله .

ويعلم الله ان قلبها كان يذوب شوقاً لمشاهدة هؤلاء الاطفال ، وخاصة اكبرهم سناً ، فقد كان ذكي الفؤاد ، نبيل العواطف ، رغم صغر سنه ، ولكن سامح الله امرأة اخيها ، فهي تفرق سلفاً من اهانة مقصودة ، او كلمة قاسية .

وسمعت صوتا في الباب: ست سليمة !! .

والتفتت فرأت احدى الخادمات « لكم شخص نعد عشاء الليلة ؟ »

واجابت كمن يستفيق من غفوة « آه . . للمعلمات الاجنبيات فقط ، لن اقضي الليلة هنا . لا تعدوا لي عشاء »

نعم ، انها ستخرج . ستذهب بعد الظهر لشراء بعض الهدايا التي لم تتمكن من شرائها قبلاً .

. . . .

وبينما كانت تسير في شوارع المدينة غمرتها تلك السعادة العظيمة التي يحسها كل من يقضي عيد الميلاد في القدس . لقد كانت المدينة الرائعة تستقبل العيد بكل ما تملك من جلال وعظمة. اما حوانيتها فقد ازدانت جميعاً بحلل العيد ، واشجار العيد والعابه ، وكان شيخ العيد يطل من نافذة كل حانوت تقريباً ، بحلته الحمراء ،

ولحيته البيضاء، وهذه الابتسامة الساذجة على وجهه . انها ابتسامة خالدة ، فقد اكتسبها من اطفال الأجيال .

وكان الناس يروحون ويجيئون في غمرة البرد وغمرة العيد اناس متلاصقون في سيرهم لا حصر لهم،وجميعهم استسلموا لسلطان العيد ، بل اصح من ذلك سلطان المدينة في هذا العيد . وعندما كانت تسير في احياء المدينه القديمة ـ هذه الاحياء الضيقة المسقوفة التي لكثرة ازدحامها ليس فيها موطىء لقدم ، ولكنها في الوقت نفسه كجدة قديمة أثرية تحنو على اطفـــالها ، وتعظهم بحكمتها ـ كانت تحس انها جزءٌ من هذا النهر البشري المتدفق . ونسيت آلامهـــا بل نسيت نفسها ، وتمنت لو تبقى في هذا الجمـع المزدحم تعيش بفيض هذه المشاعر الكبيرة واخذت الاجراس تقرع . اجراس العيـــد . وكان يسمع من آلات المذياع الترانيم الميلادية . كانت متتابعة لا يخفت صوتها ، فهي إن ابتعدت عن صداها تلقاها مذياع آخر يؤدي رسالة العيد . ومن بعيد كان يسمع صوت الباصات والسيارات وهي في طريقها الى بيت لحم ، تحمل هذه المخلوقات البشرية ، الحريصة على قضاء العيد في مكان ولادة المسيح .

وامتلأ قلبهـــا ، وهي تسير برفق في الحي الضيق بعد ان

اشترت بعض الهدايا ، واحست بذراع تجذبها ، والتفتت فاذا هي امام صديقتها وزميلتها القديمة ، مديرة القسم المنزلي في احدى المدارس التبشيرية . وقالت الست مريم ست سليمة ! هذه مصادفة طيبة ، فقد ذهبت الى المدرسة اسأل عنك . ليتك تستطيعين ان تأتي وتقضي معي اياماً في المدرسة . انه تغيير لك.

اشكرك ... سأذهب الى بيت أخي . انه لطف بالغ منك ان تدعيني الى منزلك ، لا .. ولكن حسن ان يقضي المرء وقتاً مع اصدقائه . جربي وتعالي انك لا تنوين ان تصرفي كل الوقت في بيت اخيك .

– سأجرب . اشكرك

وخرجنا من الحي القديم سويا ، وعندما افترقتا كانت الانوار تتلألأ في الشوارع والحوانيت . وما هي الا ساعة حتى كانت واقفة في باب بيت اخيها ، وقد همّت بالدخول لولا انها سمعت جدالاً عالياً جمّدها في مكانها :

– .. قلتُ لك اني لن استقبلها اذا جاءت .. لن استقبلها مهما كان الامر . لقد قضيت هذه السنوات العشر ، ولم يمض عيد او موسم دون ان يطل رأسها الكبير الابيض ، وكنت انا بسذاجتي استقبلها دائماً ... اما في هذه المرة فلن اكون تحت

سلطانها ، انها تمنينا بالهدايا التي تحضرها ... نحن لسنا بحاجة لمثل رشوتها هذه ... فقط لا نريد ان نرى وجهها .. مسكينة اختي .. انها في كل عام تسمعني كلاماً بانها ترغب في ان تقضي العيد مرة واحدة في القدس ليتسنى لها الذهاب الى بيت لحم ... ولكننا في كل عام لا نستطيع ان نستقبلها، ولماذا ؟ بسبب الست الكبيرة .. الست سليمة ! اني لا ازال اذكر كلمتها عندما ذهبت اليهم لألد طفلي الأخير ... لقد قالت لي : ان رفيقاتي يقلن لي : أختك متزوجة في القدس ، ولم تحضري العيد هناك مرة واحدة .

وجاء صوت الزوج ضعيفاً وجلاً : « وما الذي يمنعك ان تدعيها ؟.. انت تعلمين اني اضع اختك وجميع اهلك في عيوني »

« تضعهم في عيونك .. لا ارجوك .. ضع اختك السمينة في عيونك .. فأختي لها مَنْ يضعها في عيونها .. مسكينة انها اصبحت ابنة عشرين سنة ، ولم تحضر العيد مرة واحدة في بيت لحم! حتى جارتنا ام سلمان انها تقول لي : يا ام سمير ، نحن نريد ان نرى اختك الصغيرة لا شك انها في عدالتك وجمالك .. وقد وعدتها ان اريها اياها في العيد ، وقد اتخذت كلامي وعداً فبعثت تستقدم ابن اخيها ، والظاهر ان ام سلمان تنوي شيئاً .. ولكن لا شك انك انت واختك ستقطعان نصيب اختي

– مهلًا يا ام سمير فهذه تهمة لا استحقها واني اؤكد لك ان اختي لو كانت تعلم بقدم اختك لما جاءت وكدرت عليك ذلك .

واستهزأت ام سمير « لما جاءت !؟. انها تجيء وتحتل المكان ، وتضعنا امام الامر الواقع ... يا الهي . ولكن كيف حدث انها لم تجيء حتى الآن . انها في مثل هذه الساعة عادة تكون متصدرة المكان »

وفجأة سمع صوت احد الاولاد : « ماما ، حقاً لماذا لم تأت عمتنا بعد ؟ واجاب سمير بصوت حزين : اشعر انها لن تجيء في هذا العيد »

فقالت الطفلة الصغرى : وهل سنخسر الهدايا ؟

وقالت الأم : نحن لسنا بحاجة اليها او الى هداياها !

وانساب طيف حزين من الباب ، ولربما لمح احد الاطفال هذا الطيف ، فقال « يخيل اليّ ان شيخ العيد قد مرّ من باب بيتنا »

واشرأبت رؤوس الاطفال نحو الباب . وطال انتظارهم ... ومرت فترة صمت طويلة ، واخيراً ضحكت الام ضحكة عالية قاسية .لا ... ليس شيخ العيد ... والحمد لله ، ولا شيخة العيد!!

وبقيت الست سليمة تسير في شوارع المدينة والعرق يتصبب من جبينها رغم برودة الطقس ، وعزمت ان تذهب الى صديقتها

الست مريم ، ولكنها عادت فعدلت ، فليلة العيد هي للأهل والاقرباء ، انها ستذهب اليها في الغد او بعد الغد. وخاطر آخر كان يتردد في فكرها ... الاطفال ... انهم لا يزالون ينتظرون هدايا العيد ، وسيخيب رجاؤهم ... ما ذنبهم ... سينامون تعساء ، وخاصة سمير ، بينما هي تحمل هذه الهدايا الجميلة .

ووقفت برهة خيل اليها انها كانت تتصارع فيها مع جبابرة هائلة ... لا ، ستعود وستعطي الاطفال هداياهم

وعندما وقفت في الباب أحست انه بيت تعس ، فقد كان الجدال في هذه المرة اعلى من الاولى ، بينما انتحى الاطفال في زاوية البيت ، وقد همدت نار الموقد ، وانطفأت شموع شجرة الميلاد وقد نام احد الاطفال ، وشرع الآخر في البكاء ، وجلس الآخران صامتين يتنافسان فيمن يظفر بحرارة الكانون . والظاهر ان الزوج كان قد لام زوجته على حملتها على اخته ، مما جعلها تنفجر بصراخ عال قائلة : قلت لك سأترك البيت لك ولأولادك . انا لم امنعها من المجيء ، ولكنها لا شك وجدت افراحاً جديدة ، فنسيتنا ولم تعد تأبه لنا !

وقال أحد الاولاد : قلت لك ان عمتنا نسيتنا ، وشيخ العيد مرّ ببابنا فسمع امي وابي يختصمان فلم يشأ الدخول .

واجاب الآخر : هذا هو الواقع ، فشيخ العيد يحتاج الى من يستقبله ! اتظن ان عمتنا ستعطي الهدايا لاولاد الجيران الذين قرب مدرستها ؟ فنحن عندما ذهبنا اليها في المرة الاخيرة ، كانوا موجودين ، وقد اطعمتهم الحلوى مثلنا .

واجاب عندها سمير : المهم ليس الهدايا فقط ، ولكن ان تأتي . انا انتظر العيد حين تأتي عمتنا الينا ، واجلس قربها وتغطيني بالحرام معها . ليتها تأتي وتسكن معنا ! سأجعلها تنام في سريري انا

وفاض قلبها سروراً فجمعت شجاعتها ودخلت .

وهب الجميع لاستقبالها مسرورين ، حتى زوجة اخيها فقد اخذت تشعر ان زوجها واطفالها لن يصفحوا لها عن اساءتها اليهم .

وقفز الاطفال ، واخذوا يقفزون ويلوحون بأيديهم ويصفقون بينما أخذ الاخ الكبير يوقظ اخته : نهلة ! نهلة ! استيقظي ، أتت عمتنا . وفركت الطفلة عينيها فرأت اخوتها يقفزون ، وما اسرع ما اخذت تقفز هي الاخرى وتضحك ، وكأنها تريد ان تعوض عما فاتها من القفز والتصفيق اثناء نومها .

وكان على الست سليمة ان تجاهد حتى لا تهمي دموعها . وجمعت شجاعتها : « يؤسفني اني تأخرت عليكم ، وسأضطر للعودة الآن لان احدى المعلمات الاجنبيات مريضة ، وليس بالامكان ان اتركها .

وصرخ الاطفال . لا ، لا يا عمتي ، لن نسمح لك بذلك .

وكانت ساعة مليئة بالفرح والسرور تلك التي وزعت فيها الهدايا .

وجلست الست سليمة ساعة من الزمن تحدثت فيهـــا بمرح وسرور ، وأبدت اسفها لعدم تمكنها من قضاء العيد في بيت اخيها

وعندما نهضت ، كادت تخور قواهـا ، اذ تذكرت المدرسة الموحشة ، والأسرّة الخاليـــة ، وكادت تصرخ : دعوني أبقى معكم ! . احتمي بوجوهكم الضاحكة وصحبتكم المفرحة ! وبـدا فراغ وحيرة في عينيها ، وسارت نحو الباب . وعندها صاح ابن اخيها الاكبر ، سمير : « عمتي ! دعيني آتي معك ، واقضي الليلة في غرفتك ؛ اني لن ازعج مريضتك . انت تعلمين اني ولدٌ هادىء لا اقلق راحة المرضى. واشرق قلبها.. هذا حلٌ رائع يتقدم به الطفل الصغير لمشكلتها ، انها معه تستطيع ان تعود الى المدرسة وتسمع صفير الريح بين الاشجار ، وتسير في الغرف الخالية دون ان تشعر بالوحشة والكآبة ، وانها في الوقت نفسه ليست مضطرة ان تبقى في هذا البيت الذي لا يرحب بها اصحابه .

نعم يا سمير ستأتي معي . وخاصة ان مريضتي في شقة بعيدة .

وخرجا سعيدين ، والطفل لا يزال يؤكد لها انه سيكون

ولداً هادئاً ، كأنما هو يفرق انه تعيده الى البيت ، وهي متشبثة بيده ، كأنما تخاف ان يغيّر فكره ويعود الى امه واخوته .
واخذت تفكر بعشرات الاشياء التي ستعملها من اجله ، وعندما اخبرته انها ستأخذه في الغد الى حفلة الميلاد في احدى المدارس الداخلية ، كاد يطير فرحا . لا شك انها كانت اسعد منه ، واحرص على ان يمكث معها .

ولا شك ان وجوها وقلوبا كثيرة كانت مشرقة سعيدة في تلك الليلة ، ولكن بالتأكيد كان بينها قلب الطفل وعمته ، وهما جالسان وحيدين في الغرفة ، وقد ادارت مفتاح مذياعها الصغير ، واشعلت نار المدفأة ، وأنارت الشجرة الاصطناعية بمصابيح الكهرباء الصغيرة .

وحدثها الطفل بأشياء كثيرة ، ولكن كان أحبها الى قلبها قوله :

« انني يا عمتي ، عندما اكبر سآخذك لتسكني معي ، لاني احبك كثيرا ولاني عندما اكون معك دائما اتذكر عيد الميلاد والهدايا الجميلة ، كما أذكر وانا جالس بالقرب منك انك تغطينني بالحرام الأحمر . نعم يا عمتي سنعيش سويا »

الأبن الأكبر

امرأة طموح . هذا هو اللقب الذي يجدر بأم أديب ، وهو اللقب الذي اطلقه عليها كلّ من عرفها . امرأة تسابق الايام ، وتكافح الليالي ، لتستنزف من الايام والليالي افضل ما فيها .

لها من الاولاد سبعة : ابنتان، وخمسة صبيان. وتقول جارتنا ام فهد : « ما شاء الله على ام اديب ! ملأت البيت صبيانا . »

وام اديب بالاضافة الى كل هذا متعلمة ، بل لقد كانت في « أيام زمان » معلمة في المدرسة التبشيرية ، وكانت تتقاضى جنيهين ذهبا آخر كل شهر – وهذا امتياز لمن تعلمن في المدرسة التبشيرية للمعلمات – وقد وفرت جنيهاتها الذهب ، وعندما تزوجت جعلتهن رأسمالاً لزوجها، ليترك النجارة ويشتغل في التجارة .ولكنه خسر في تجارته ، واضطر ان يعود لمنجرته .

مسكين أبو اديب ، يعود في المساء ، متعباً منهوكا ، على ثيابه آثار « النشارة » وام أديب قد تحتقره في صميم فؤادها ، فهي متعلمة ، وهو جاهل ، الا انها لا تمعن في احتقاره ، فهو الكدّاد، وهو الذي يجعل الرغيف يسعى الى بيتهم ، وان كان هذا الرغيف يتلاشى بسرعة ، اذا ما تخاطفته أيدي الصبية .

اما « ام اديب » فهي لا تؤمن بالعلم لغايته ، ولكنها تؤمن به أداة للحياة. ولذا فما كاد الاولاد يدركون الاشياء من حولهم ، حتى اخذت تلقنهم مبادىء القراءة والحساب ، وذلك لسبب واحد ، ليبزوا أقرانهم في المدرسة ، وليحصلوا على علامات عالية ، ولينفتح امامهم مجال البعثات اذا ما شبوا وكبروا ، ثم .. يتوظفون في مراكز عالية ، ويتقاضون مرتبات عالية ، وتنهال الاموال عليهم ، فيبنون دورا ، ويؤجرونها ، ومن ايجارها يشترون غيرها ويصبحون ... يصبحون اغنياء ... فلا يتكلم في هذه الحياة الدنيا الا المال .

وكانت هذه الامنية تداعب خيال ام اديب دائماً : في النهار بينما هي تغسل الصحون ، وتطبخ للعائلة ، وفي الليل عندما تهدأ الاصوات ، وتستسلم لأحلام هذا المستقبل الذي ترجوه لاولادها.

وكان الصبية اذا ما عادوا بعد الظهر من المدرسة ، تتنقفهم

الواحد بعد الآخر . . . « اديب ، اليوم الاثنين ، وعليكم عـادة حساب للمنزل ؛ هيا ابدأ بعملك . وانت يا وديع ، لا تزال تتعثر في « ان واخواتها » . احضر كتاب « الشرتوني » واجلس على ذلك المقعد ، وذاكرها . اما انت يا بسّام فجبال سوريا لم تدخل مخك بعد . هات « الاطلس » واقعد قبالتي . وانت يا جواد لا تزال تتعثر في قراءة درسك . احضر كتاب «الرشيدة» بسرعة . وانت يا باسمة دربي اخاك الصغير على جمع العشرات ، حتى أنتهي من التسميع لاخيك الاكبر ، وعندها اسألك في درس التاريخ . اما سلمى فعليها ان تتمرن على الاملاء » .

وتقول جارتنا ام فهد : « ما شاء الله ، ام اديب عندهـا مدرسة . الكل يقرأ ويكتب » . ويسمع احيانا صوت ام اديب وهي تعنف وتؤدب ابنها الاكبر ، فتقول جارتنا ام فهد : « أم اديب تعنف ابنها الاكبر اديبا . فالمسكين بطيء الفهم ، وام اديب تريد ان تحشو ذهنه بالحساب » والحق يقال إن أم اديب كانت جادة في مسعاها ، بأدق ما في هذه الكلمة من معنى ، فهي تستيقظ مع الفجر ، وتكد النهار بطوله ، دون ان تستخدم من يساعدها في اعمال المنزل . وفي العصر تجلس الى اولادهـا تعلمهم جميعا ، وتفسر لهم ما عسر عليهم . واذا ما ناموا جلست الى رتق الجوارب ، وترقيع الثياب ، وشغل الصوف . ويعلم الله ان هذا

العمل استمر اربعة عشر عاما متواصلة ، حتى التحقوا بالمدارس الداخلية ... آجرها الله على قدر مجهودها .

اما البنتان ، فمشكلتاهما تختلف عن الصبية ؛ فأم اديب ، وان كانت معلمة في ايام زمان ، الا انها لا تؤمن بان للفتاة مصيراً افضل من مصير الزواج .. فهو طريق الطبيعة ، وهي دائما الطريق الصحيحة ، ولذا فهي ستحرص على ان تنالا قسطا معينا من التعليم ... ثم الى الزواج ... ولكن اذا لم ييسر الله امر هذا الزواج ، فعندها ستشتغلان بأمر ما ، حتى يبعث الله ابن الحلال . تشتغلان ، او الاصح تشتغل ! فام اديب لا تخاف على ابنتها الصغرى ان يعرقل سبيل زواجها ، فهي شقراء ولها عينان زرقاوان « ومثلها تنفق من باب السوق » ولكن المشكلة هي البنت الكبرى .. فهي سمراء وشعرها كشعر العبيد ، وتقاطيع وجهها غير منتظمة .. ولكن وهبها الله قداً جميلاً . ولذا فقد كانت تختلط الأحلام في رأس ام اديب ، وقد تأتي هذه الاحلام على النحو الثاني : « وديع رياضيّ ، بسام له ميل للانشاء ، سلمى شقراء . . باسمة . . . باسمة قدها جميل » .

وكثيرا ما راقبت الام ابنتها الكبرى وقالت في نفسها : «سيتحسّن منظرها اذا ما كبرت واخذت في التزين . قليل من الابيض والاحمر سينتج تحسنا ملحوظا » .

ومرت الايام ، وصدق حدس « ام اديب » فالبنت الصغرى تزوجت تاجراً كبير ، يتجر بالجوخ ، وهي تعيش على نحو يرضي أم اديب وزيادة .

وطال الامد على ابن الحلال ليتعرف على البنت الكبرى ، وسمعت ام اديب ان كثيرا من الفتيات يتعلمن فترة وجيزة على الآلة الكاتبة ، ثم يلتحقن بالمكاتب ، ويتقاضين اجراً لا يقل عن تسعة جنيهات في الشهر . . . . تسعة جنيهات في الشهر مبلغ لا بأس به . فالبنت الكبرى لن ينفقهـا بياض خديها ، ولذا فستسمن لها جيبها ! المال يعمل عجائب ، ويجعل السمراء تبدو بيضاء .

ولكن في قلب ام اديب حسرة لا يعرفها الا من حاول ان يجعل شجرة تثمر ، فلم يُنجدِ مجهوده نفعا . وذلك ان ابنهـا الاكبر اديبا لم يفد من العلم شيئا ؛ فهو بليد كسول رغم جهود الام الجبـارة لتثقفه . واخيرا اضطرت « ام اديب » ان تسلم للامر الواقع ، وتأخذ بنصيحة جاراتها ، بان تعلّم ابنها صنعة ، ما دام العلم لا يجدي معه .

واصبح أديب حدادا ، بينما اثمر مجهود الام مع الصبية الآخرين ؛ فاذا بوديع يدرس الهندسة في مصر ، وبسام يدرس المحـاماة في القدس ، والابن الرابع يستعد لامتحـان « المتريكيوليشن » ، والصغير في الصف الثاني الثانوي . اما باسمة فقد اضافت الى علمها

بالعمل على الآلة الكاتبة ، علما بالاختزال ، ونالت مرتبا عاليا ، بل اهم من هذا أنها انتقلت الى العاصمة لتكون سكرتيرة لرئيس دائرة الاشغال العامة .

وام اديب مرفوعة الرأس بكل هذا ، يزيدها النجاح رغبة في العمل ، ولكن الذي ننغص على أم اديب عيشهـــا هو الابن الاكبر ، فانه ليؤذيها ان تراه حدادا ضئيل الشـــأن ، يعود في المساء ملوث الثياب ، اسود اليدين . وتقول في نفسهـا دائما . . « كيف سيجلس هذا الى اخوته وبينهم المهنـــدس ، والمحامي ، وربما مدير البنك ؟! »

ولكن اديبا كان سعيداً بعمله ، وقد قدر له بحكم وجوده الدائم في البيت ، ان يلحظ عن قرب ما تضحي به الأم المجاهدة في سبيل اولادها ، فيحفظ كل هذا في قلبه ، فقد كان الفتى صـافي النفس ، حسن النية ، وان لم يكن يحسن التعبير عن نواياه .

ولكن الام قد طرأ عليهـــا تغيير ، لا يلحظه الا المراقب الدقيق ، فقد تبدأ تسرد حادثا ، ثم تنسى ما عزمت عـلى سرده ، ثم تتذكر ، فتسرد ما تريد . وقد تهرع الى بيوت الجيران لتستعير إناء ، وعندما تصل الى العتبة ، تنسى ما تريد .

ولم يعر الجيران ذلك كبير اهتمام ، ولكنهم مـع الزمن ،

لم يكن بوسعهم الا ان يلحظوا . وقالت جارتنا ام فهـــد « أم اديب اصبحت شديدة النسيان ! » هذا ما قالته في مجلس عام ، اما في المجلس الخاص فقد قالت « ام اديب يصيبها شرود . ولعل ذلك لكثرة ما شقيت في حياتها » .

وفي العام الذي كان فيه وديع يتدرب في مكتب احد المحامين في القدس ، وكان الابن الثالث يستعد لشهادة الهندسة ، اصاب ام اديب نوبة في القلب .. وقال الطبيب « ان هذا نتيجة الاجهاد المضني » .

ولم تجد الام المسكينة من يسهر عليها غير الابن الاكبر . ذلك ان الصبيان كانوا في المدارس الداخليـــة ، بينما لم يكن بامكان الابنة المتزوجة ان تترك بيتها وقد اصبحت أُماً لثلاثة اطفال ، ولم يسمح عمل البنت الكبرى لها بترك وظيفتها و ..

وعاد الصبية في عطلة الميلاد ... واستاؤوا في اعماق قلوبهم لأن يجدوا امهم مريضة ، فهم ينتظرون العطلة ليظفروا بتدليل هذه الأم وعنايتها ، وليأكلوا ألواناً من الطعام لا يظفرون بها في المدارس الداخلية . وكانوا يكبتون استياءهم هـذا حينا ويظهرونه أحيانا .

وفي احد الايام ثارت عصبية جواد ، وذلك لان بعض زملائه

قد جاؤوا في جولة الى بلدته ، ودعاهم لتناول الغداء ، لا سيما وهم يكثرون من دعوته في بلدتهم ، وقد وعدته امه ان تغادر الفراش لتهيىء الطعام وترتب البيت . ولكن المسكينة اصيبت بنوبة شديدة تلك الليلة ، ومنعها الطبيب من مغادرة الفراش . وارتبك الفتى ، وسمع نفسه يقول : « الامهات يخترن اضيق الاوقات للمرض » .

وسمعه الابن الاكبر وقال له « لا تغضب يا جواد ، فسأدبر لك الامر على الوجـــه الذي يرضيك » . واستدعى الابن الاكبر احدى نساء الحي لتعد الطعام ، كما تبرعت احدى بنات الجيران بترتيب المائدة . وعندما اقترب موعد مجيء المدعوين غادر الابن الاكبر البيت وقال بسام : « الى اين ؟ »

« انا مشغول . لن اتمكن من الجلوس معكم . ارجو لـــكم وقتا طيبا . »

وانزاح حمـل ثقيل عن ظهور الاخوة ، فهم لا يطيقون ان يرى طلاب العاصمة اخاهم الحداد الجاهل ، ذا اليدين السوداوين ، والثياب الملوثة .

وكان اديب يعرف حقيقة شعورهم وهـذا ما دفعه لمغادرة البيت . واشترى طعامـــا من السوق واكل وقعة الغداء في ذلك اليوم .

اما وديع ، وهو الذي يدرس الهندسة في مصر ، فلم يكن بإمكانه العودة في عطلة الشتاء . ولما سمع بمرض امه بعث برسالة منمقة على ورق ازرق ، يسأل عن حالها . ويذكر في الرسالة ايضا انه تعرف على فتاة ظريفة جدا ، وخال هذه الفتاة باشا ... وبعد ذلك يذكر حاجته الى النقود .

وتأثرت الام من حاجة ابنها للنقود في ديار الغربة . ولكن الوالد استاء من ذلك ، وهو الذي اعطى كل ما يملكه لاولاده عند عودتهم الى المدرسة ، فانفجر غاضبا : « كل هذا لا يعجبني . هندسة ومحاماة ... لا طاقة لنا على ذلك . ابن النجار يجب ان يكون نجارا .. ها نحن نموت لنؤدي لهم حاجاتهم ... وما هي حاجاتهم ، ان يصبحوا افندية .. ونحن كالخدم لهم . يا ما احلى ايام زمان ، حين كان رجل مثلي ، له خمسة صبيان ، يكون متقاعدا ، وابناؤه يتسلمون عمله . من يصدق : أب لخمسة اولاد لا يزال يشتغل دون انقطاع ؟ هم يحرثون على ظهري ، ليرافقوا بنات اخوالهن باشاوات ! » .

ومن جراء هذا اصيبت الام بنوبة قلبية . وسهر الفتى على أمه تلك الليلة وقال لها : « امي ، لا تجزعي فسأرسل لوديع ما يطلب من المال » .

وكان قد ادخر المال ليحسّن مصنعه ، ادخره بعد طول كد وعناء . ولكنه عندما ارسل الحوالة المالية ، كان سعيدا وهو يذكر الهدوء والطمأنينة اللذين ارتسما على وجه الام المسكينة عندما أيقنت ان ابنها سيحصل على المال في ديار الغربة .

وعندما جاء الربيع تحسنت حالتها الصحية ، ولكن اديبا لحظ ان حالتها العقلية قد تأخرت كثيرا . واخذت الام تكثر من ارتياد بيوت الجيران بدون سبب . ووجدها في احد الايام سائرة في الطريق العام ، وكان في منظرها ما خبّره انها شاردة .

« امي ، الى اين انت ذاهبة ، »

« انا ذاهبة لعند ... لعند جارتنا ام حسون »

واديب يعلم ان جارتهم ام حسون لا تقطن في ذلك الحي .

« التعب باد عليك يا امي .. اظن العودة الى البيت افضل » وقادها الى البيت .

وفي تلك الليلة لم ينم . ان اختلالا يطرأ على عقل امه ، ما في ذلك من شك . وعندما اتقدت مصابيح السماء ، خيل اليه ، انها تشهد جميعا دموعه التي كانت تنهمر دون انقطاع على وجنتيه الشاحبتين .

ومرت امام مخيلته صور من حياتها . صور متتابعة مختلفة ،

ولكن يجمع بينها هذا الكد المتواصل ، والعمـــل المستمر ، لتحقيق حلمها الجميل . وهو ان يبلغ اولادها شأواً بعيدا في العلم، ويظفروا بمركز اجتماعي ممتاز .

مسكينة قد يتحقق حلمها ... ولكن هي .. لن تشهد هذا . ولن تفرح به، ولن تجني الثمر ... بل هي لن تعيه ولن تدركه.

وفي نهاية العام عاد المحامي وقد انهى مدة تدريبه . ولما رأى امه على هذه الحال تأثر كثيرا ، خاصة وإن امـه لم تعرف اهو وديع ام بسام . ولكنه بعد شهر همس في اذن اخيـه أنه ينوي العودة الى العاصمة ليفتح مكتبا . وذهب الفتى ليبدأ حياة جديدة، كفرخ يغادر العش .. ولكنه غير آسف ولا حزين. وربما لينسى النجار المسكين ، والام التي انهكت قواها لتعليمه .

اما الابن الثاني ، فقد انهمرت الدموع من عينيه ، لان امه ابت ان تعترف بانه ابنها .. وقالت ان هـذا مصري غريب لا تربطها به أية صلة !!

وبعد اسبوعين قال لاخيه ، إنـــه ينوي العودة الى مصر ، ليتزوج من الفتاة التي خالها باشا ، ولكنه لا يريد ان تعرف هذه الفتاة شيئاً عن حال أمه .

اما باسمة فقد اعتكفت في غرفتها طيلة الاسبوع الاول من اجازتها ، تبكي على امها المسكينة ، ولكنها في نهاية الاجازة ، خلت باخيها الحداد وقالت له إن حزنها عـــلى امها لا يوصف ،

ولكن الظاهر ان احد الكتبة يريد الزواج منهـــا ، وطبعا اذا عرف بحال امها ، فسينفره هذا من الزواج . وغادرت هي ايضا البيت وهمها الاول ان تتزوج من الفتى الكاتب .

وجاء اليوم الذي قالت فيه جارتنا ام فهد . « مسكينة ام اديب . كان عقلها يزن الجبال رزانة ، وقد زايلها العقل الآن. وكل هذا من كثرة ما جاهدت لبنيها . ويا ليتهم يتعرفون عليها الآن ! كل واحد منهم يسكن في بلد ، وقد تزوج بحسناء مثل البدر ، وله بيت يملكه ، وسيارة ، ولا يتنازلون لزيارتها .. الا هذا المسكين اديب ، فقد وقف حياته لها » .

وساءت حال ام اديب كثيرا، فادخلها الى مستشفى للأمراض العقلية ، تابع لدير « راهبات المحبة » .

وكانت الراهبات يرينه عصر كل نهار يسير الى المستشفى يحمل الفاكهة والحلويات ، ويجلس اليها الساعات الطويلة .

وقالت له احدى الراهبات مرة : « إننا نسمع امك في الليل تقول بصوت عال .. وديع مهندس .. بسام محامي .. وسلمى زوجة تاجر كبير .. وباسمة قدها جميل . فمن هؤلاء ؟ »

واجاب اديب بصوت منخفض « هؤلاء أولادهـا وبناتها »

بهجة الخريف

تقول العامة « ليس اغلى من الولد الا ولد الولد » والشيخ سليم البالغ من العمر سبعة وسبعين عاما ، لم يعرف مدى صدق هذه الحكمة حتى ولد لابنه جميل صبي سماه نديما .

وولع الجد بحفيده ولعا شديدا ، وخاصة عندما بدأ الطفل يحبو ويمشي ويتكلم كلاما متكسرا ، يجهد الجد نفسه كثيرا ليعرف مدلول الالفاظ التي ينطقها الطفل . وكأن مقدم هذا الطفل شعاع من النور دخل الى حياته فحمل اليها اشراقا وبهجة . ومعاشرته لهذا الطفل تبعث في نفسه سرورا مزدوجا . فالجد يحب مراقبته وهو يتعرف الى الحياة من حوله ، ثم هو يشاركه افراح الطفولة ايضا . فكأنما الطفل ساحر صغير يأخذ بيد الجد فيريه الحياة ثانية جديدة ، بهجة ضاحكة ، بعد ان كان الجد قد بلاها فرآها قاسية سفاكة ، ناكثة للعهد .

وكاد الجد ان ينتهي الى فلسفة مغايرة لما كان يؤمن به بشأن الحياة فهو يراها الآن لا لون لها ولا شكل ، انما تظهر للأعين كما ترغب الاعين ان تراها .

وزادت اواصر الالفة والحب بين الجد وحفيده ، فالاول لا ينام الا بعد ان يستعرض حركات الطفل ، واستجابته للمؤثرات من حوله ، ثم هو يفكر أيضا بما سيفاجئه به في الغد ، من الهدايا والحلوى والالعاب والقصص ، والطفل لا ينام الا وهو فرح بما حصل عليه في ذلك اليوم ومنتظر لما سيحصل عليه في الغد .

وقال الوالد يوما لوالده ، يا ابي ارجوك الا تكثر من تدليل نديم فستصبح تربيته امرا شاقا علينا في المستقبل، وقد غدا يعصيني ويعصي امه لانه يجد عندك ملاذا حصينا .

واجاب الوالد الجد ، بانه سيحاول ان يلتفت الى هذا الامر الهام . ولكن نديما باعث تسلية كبيرة له ، وهو لا يرى ولده يضن عليه بمثل هذه التسلية .

وأثرت الكلمة في قلب والد الطفل ، فلم يعد الوالد يشير الى كثرة تدليل نديم .

. . . .

وكان ذلك في أمسية من امسيات الصيف ، حين صعد الشيخ

مع حفيده الى سطح البيت ، ليطير نديم طيـارته الجديدة ، وتعلقت عينا الطفل بالمكان الرفيع الذي تحتله طيـارته ، واخذ يتأمل ذيلها البديع وهو يتهـادى في الجو ، ثم التفت الى جده وقال : « انظر انها تلاعب العصافير » .

واضاف الجد : « طبعا، ولا شك ان جميع العصافير مستغربة من هذا الشيء الغريب الذي يحلق في الجو . »

وأعجب نديم ان تثير طيارته في العصافير استغراباً ودهشة ، ثم التفت فاذا بطيارة جاره اسعد ، اشرأبت هي الاخرى ، تمتطي الجو بسرعة. اخذ نديم يمدد خيط طيارته بحماس وتهيج ، والطيارة ترتفع الى اعلى ، وعينا الطفل ترقبانها باهتمام ، ان طيارة جـاره اسعد لن تتسنم في الجو مكاناً ارفع من طيارته . وجازف نديم فحدثت الكارثة الكبرى ، واذا بميزانية الطيـارة قد اختلت وتدهورت الى الارض في مكان بعيد عند مجموعة البيوت والازقة. وشحب وجه الطفل شحوبا شديداً ، وجده يرقبه بحذر واهتمام والم لما ظهر في قسمات وجهه من تأثر ثم قال له . لا عليك يا نديم فسأشتري لك في الغد طيارة اكبر منها واكثر زخرفا .

ولكن الطفل نظر الى الخشبة المصلبة في يده ، والحبـــل المقطوع ، واخذ يلفه بيأس على الخشبة ، وهو ينظر الى موضع اتجاهه ، ثم اندفع ينزل درجات سطح البيت بسرعة .

وقفز قلب الجد وقد خيل اليه ان الطفل سيصاب بمكروه . واخذ ينزل درجات السطح هو الآخر قلقا على الطفل حتى تبعه واخذا يسيران كلاهما بين الازقة والشوارع ، يفتشان عن الطيارة المصابة ، ودموع الطفل تهمي على وجنتيه .

وصعدا بيوتا كثيرة ، واخيراً بعد جهد ، عثرا على الطيارة المحطمة في احد البيوت ، وكانت قد اشتبكت بحديد احدى النوافذ ، واذا بطفلة في ذلك البيت قد تعلقت بالطيارة ، وادعتها لنفسها ، واخذ نديم يجادلها بانها طيارته المتدهورة ، واقنعها الجد أن هذا الكلام حق وصواب . فاذعنت الطفلة مكرهة ، وسار الطفل وجده عائدين ، وقد تعزى الطفل فابتسم ، واطمأن لجد اذ رأى الطفل يبتسم ، ولكن لما دخلا البيت كانت الظلمة قد بدأت تزحف ، والمصابيح قد انيرت في بعض البيوت .

وقال الوالد الشاب لأبيه : « يا والدي ، انت تبالغ في تلبية طلبات نديم ، ولا شك انك ترهق نفسك كثيرا وانت تذهب معه الى بيوت اناس غرباء ، تفتش عن طيارة طفل » .

ولم يجب الجد وانما نظر الى وجه الطفل الذي كان يغط في نوم عميق بعد السعي الشاق وراء الطائرة المتدهورة ، فرأى

ابتسامة طمأنينة وهدوء على وجهه وشعر الجد بأنه قد نال الجائزة.

. . . .

وانقضى الصيف وجاء الخريف .

وقال الطفل لجده في احد الايام وقد رأى سربا من العصافير تزقزق مارة من امام عينيه كأسهم عديدة لامعة : « جدي، انظر العصافير ما اكثرها ، الى اين تذهب العصافير ؟ »

واجاب الجد أنها ترحل في فصل الشتاء الى مكان دافىء ، وتبني اعشاشا تقيم فيها هناك ، حتى ينقضي البرد والشتاء ، واذا ما رحلت الطير فلن يكون الشتاء بعيدا . وتعلق الطفل بمغامرة الهجرة ، واتم الجد حديثه يغذي خيال الطفل : « لعلها تذهب الى حيث الشمس الدافئة ، والاحراج الكثيفة ، حيث الاشجار الشامخة الى الاعلى ، هناك تقضي العصافير وقتا طيباً ».

وتحمس الطفل وسأل « وهل تعود العصافير يا جدي » .

نعم ، يا نديم ، انها تعود الى اوطانها ، تعود لتستقبل الربيع بغنائها » .

وهنا هبت ريح عاتية ، فهزت الاشجار هزا عنيفا وتساقطت أوراقها ، وسرت رعشة كئيبة في ضلوع الشيخ ، فقد قضى حياته كلها ضعيفا أمام الخريف ، وهو لا يستطيع ان يقاوم وحشته

وكآبته . في حداثته وشبابـه ، في كهولته وشيخوخته بقي الخريف ينال منه ... ومرت امامه صور عنيفة من ماضي هـذه الحياة ، ذكر أقرانه ، فاذا اكثرهم رحل عن هذه الحياة الدنيا ، ونظر الى الحياة من حوله ، فاذا بها قد اتخذت شكلا جديدا ، واصطنعت ظروفا جديدة ، وسارت في مدارج جديدة ، وشعر بالغربة والرهبة ، وبوحشة الخريف التي تعلن عن قدومه ، رياح عاتية ، واشجار عارية ، وغيوم تزحف في السماء .

« جدي ، انظر الى الاوراق ، كيف تدور حول الشجرة ، انا ايضاً استطيع ان ادور حول نفسي دون ان يدور رأسي .

ورده صوت الطفل الى محيطه ، فنظر اليه ، واشرقت نفسه... ماذا كان يفعل لو لم يكن نديم موجوداً ، وخاصة في هذه الفترة من خريف الحياة ، وخريف الطبيعة ؟

وعاد صوت الطفل فنبهه : « وهل تعود الأوارق الى اشجارها مثل العصافير ؟ » ونظر الى الطفل طويلاً ، وقد استغرب كيف تخطر بباله هذه المقارنة . لا يا نديم ، هذه الاوراق لن تعود ، انما ينمو بدلها من الشجرة نفسها اوراق جديدة خضراء جميلة ، — « متى يكون ذلك ؟ » — « في الربيع » — ومتى يأتي الربيع ؟ » — « بعد الشتاء» — «وهل الشتاء عندما نجلس حول النار ونشوي

الكستناء ؟ » -.« نعم !» ــ اذن متى يأتي الشتاء ؟ » -- «قريباً».

« جدي دعني اركب على ظهرك » - « هيا، اركب يا نديم ».

ودخلا البيت ، ونسي الجد وحشة الخريف » .

. . . .

ولكن لم تكن حياة الجد والطفل كلها تأملات في الطبيعة ، فقد كانت هناك بهجة النزول الى السوق ، والذهاب الى الملعب العام ، وهناك كان يتدحرج ويتأرجح ، وجده يدفع الارجوحة به بعيداً ؛ وهناك ايضاً بهجة الركوب على الحمار الذي كان يسير به في الطريق نحو القرية المجاورة ، وكل اولاد الجيران يخرجون للتفرج على نديم عندما يركب الحمار ، ويشعر نديم بالزهو والفرح لان صاحب الحمار يركبه الحمار تلبية لطلب جده .

. . . .

ولكن لما جاء الشتاء اعتكف الجد في فراشه ، ولم يعجب نديماً هذا الحال ، رغم ان جده كان يوصي الخادم بأن يأخذه الى السوق يوميا ، والى الملعب ، ولكن هيهات بين مرافقة جده ، ومرافقة الخادم. فهذا الأخير يأخذه الى اقرب دكان ويشتري له، اقل مما اعتاد جده ان يشتري له، وفي ملعب الاطفال كان الخادم يلعب وكثيراً ما يتركه حائراً. واخيراً صار يفضل ان يبقى في البيت ، او يجلس الى

جده يستمع الى حكاية من حكاياته الممتعة ، يفضل هذا على مرافقة الخادم الى السوق او الى الملعب . ولكن لم يكن بالامكان الاستماع الى حكاية دائماً ، فكثيراً ما يكون جده متعباً لا يقوى على الكلام.

وجاء يوم استيقظ فيه نديم ، فشعر بحركة غريبة في البيت ، وجاءت امه وقالت إنه سيذهب الى بيت خاله ليقضي النهار عندهم ، وأخذه الخادم الى بيت خاله ، ولكنه لم يسرّ بالملعب ، فقد احس بشيء ثقيل في قلبه لا يدري بما يفسره .. وفي اليوم الثاني جاء والده وعاد به الى البيت وفي الطريق قال له والده : « انك لن تجد جدك في البيت يا نديم اذا ما وصلنا » — « واين ذهب ؟ » — « ذهب الى السماء ! » — « ولن يعود ؟ » . — « لا يا نديم ، بل نحن سنذهب اليه يوما من الايام » .

« ولن يأخذني بعد الى السوق ، والى الملعب ؟ ولن يقص عليّ حكاياته ؟ ولن اركب على ظهره ثانية ؟ » .

« لا يا نديم ، بل انا الذي سأفعل ذلك ، اذا ما عدت من عملي مبكرا ، اما القصص فستسردها عليك امك » .

ولكن نديما ما كاد يصل الى البيت حتى هرع الى غرفة جده ... ونظر طويلا الى السرير الخالي ، والمقعد الخالي ، ولكنه رأى تحت السرير حذاء جده القديم ، فاخذ يتحسسه ، ورأى

العصا وراء الباب فاقترب منها ، وببطء مد يده وتحسسها هي الاخرى ثم التفت فرأى والده واقفا بالقرب منه » .

« وهل لبس جدي حذاءه الجديد ؟ ولِمَ لم يأخذ عصاه معه »

« انه لن يحتاج اليها هناك » . وبقي نديم صامتا لحظة طويلة ، خيل الى الاب ان نديما يصلي ، بل اكثر من ذلك انه اتصل بجده في تلك اللحظة ، اتصل به بطريقة لا يستطيعها هو . ثم خرج من الغرفة ببطء ، وفتح الباب الخارجي ، ووقف طويلا ، وكانت السماء مكفهرة ؛ وهبت ريح عاتية فتساقط ما كان قد تبقى من اوراق بعض الشجر ، ورأى نديم اسراب الطير كأسهم لامعة تمر من امام عينيه . ثم دخل نديم وسأل والده : « يا والدي أذهب جدي كالعصافير ام كالاوراق ؟ » .

اليتيم الفنان

(فازت بالجائزة الاولى في مسابقة للاذاعة الهولندية العالمية)

بعد مسير شاق في الطريق الوعرة ، بدا المكان الذي يقصده سمير ووالده ، وكأنه قلعة من قلاع القدماء ، تتوسط غـابة كثيفة . وكانت الثلوج تغطي تلك البقعة ، فبدت كوشاح أبيض فيه خروق تنتصب منها أشجار السرو الداكنة تحركهـا ريح قاسية ، فتنحني الاشجار كأنها في رقصة من الرقص القديم الذي كان يقيمه القدماء في المآتم .

وفي المكان وحشة وكآبة جعلت « سمير » يلتصق كثيراً بوالده ، فقد تسرب الى نفسه الشعور الذي يلازمه عادة وهو يمر بمحاذاة المقبرة ساعة الغروب .

وتذكر بيته الجميل ، وسريره الدافىء ، وكتبه وما فيها من

قصص ، وما يزينها من صور جميلة ، وأمه تسيطر على كل هذا ، وتسيّره لمصلحته .. أمه لقد ذهبت ، ماتت !

وكثيراً ما اغرق في الدموع بعد وفاة أمه ، وقد غلبه شعور الوحدة واليأس ،شعور التائه الذي يعجز أن يقبل على الحياة ثانية ، والحياة تأبى ان تنظر في وجهه إلا وهي شامتة به ،لا تبالي بجزعه ، ولا تأبه لحزنه .

ويقترب الوالد من ولده يؤاسيه وينصحه أن يتجمل بالصبر والشجاعة ، فقد أصبح فتى كبيراً ، وتصرفه لا يليق بالرجال .

وقد تشجع سمير ما كان ذلك بإمكانه ، ولكنه الآن وهو يسير في الطريق الوعر ، والثلج الصامت ينظر في وجهه شامتاً ، أحس بصعوبة الاقبال على الحياة الجديدة .

والتفت الى والده ، وتشبث بيده الكبيرة : « دعنا نعود يا أبي . . انا لا احب هذا المكان » وقال الوالد : « انت مخطىء » ، فالمدرسة جميلة ، لقد قابلت المدير والمعلمين ، ورأيت التلاميذ ، وغرف الدراسة ، وانا واثق انك ستحب كل هذا . وسآتي لزيارتك كل اسبوع ، واذا لم تطمئن الى المكان بعد تجربة الحياة فيه ، فانا اعدك بأن أخرجك من المدرسة عندئذٍ . انت تثق بقولي هذا ، أليس كذلك ؟ . »

« بلى »

والآن انظر الى الجبال من موضعنا هذا ، والافق الازرق البعيد من ورائها . والبلدة المستلقية على منحدرات الجبـــال . منظر كهذا خليق بالرسم » .

وما كان والد سمير ليشير مثل هذه الاشارة الى مناظر الطبيعة لولا ان سميراً فنان ؛ فالاطفال لا تستيقظ فيهم رغبة التمتع بالطبيعة ، واستيعابها كوحدة في مثل هذه السن المبكرة ، وانما تنصرف عنايتهم بها الى الجزئيات . ولكن سميراً يضمر للطبيعة ميلاً خاصاً ، وقد لبّى نداءها دائماً ، دون ان يدري انه يلبي نداءها ؛ فهو منذ بدأ يدرك الاشياء ، ويستوعب الامور ، كان يبدو دائماً متأملا صامتاً ، يطيل النظر الى الجبال الشامخة ، والغيوم التي تنساب في السماء . ولحظ والداه هذا الميل فيه ، فقدّراه ، وشجعاه على تنميته ، وخاصة امه ، وهي التي ورث عنهـا هذا الميل الى الرسم . فكثيراً ما احضرت له صوراً ينقل عنها ، ولفتت نظره الى تناسق الوان الازهار واشكالها ؛ بل كثيراً ما سار معها في الاودية العميقة ، وعلى رؤوس الجبال ، وفي غابات الصنوبر الداكنة . وكانت هذه اسعد ساعات حياته ، فكأنه واياها روح واحد ، يفهم احدهما الآخر ، ويتأثر بمـا حوله بنفس الطريقة ، ويلبيان نفس التلبية . وكانت ترتفع نفساهما وتكبر وتتسع ، فاذا

المدينة حقيرة ، واذا البيوت اقفاص وضيعة اذا ما قيست بعمق الوديان ، وروعة الجبـــال ، ورائحة الصنوبر المنعشة ؛ واذا بهما طائران طليقان يستمتعان بهذه الاحاسيس المنعشة الملهمة التي تنفذ الى شغاف قلبيهما ، وهما في احضان الطبيعة الساحرة .

ثم بدأ سمير يرسم ، واكتشفت أمه مقدرته الخارقة على رسم المناظر الطبيعية على الاخص ، وبعض هذه المناظر جاء ساذجاً وبعيداً عن قوانين الرسم من جهة الابعـــاد والنسب ، ولكنه جميعه يتميز بجو خاص يخلقه في الناظر ، الى جانب مسحة من الخيال والانطلاق ؛ فكأنما هذه المناظر من الطبيعة ، وليست منهـا . فهذا الرسام الصغير كان بإمكانه ان يجعلك ترى السهل والجبل بالاضافة الى شكليهما الخاصين ، كما يراهما هو ، وقد سيطر عليهما الجو الذي يشتاق هو اليه ، والانطلاق الذي يحلم به.

وهو في كل هذا مدفوع بقوة غريبة ، ومقدرة هي فوق سن الاطفال ، فاذا به يرسم و كأنما يد خفية تقوده .

. . . .

ونظر سمير الى الجبال واحس بوهبتها وجلالها ،واحس بوحدته وانفراده، وبحاجته الى الرفيق الحنون الذي كان يشاركه المتعة في مثل هذا المنظر ، ويتأثر به كما يتأثر هو به .

ومن خط الافق الازرق البعيد تمثل الناس سائرين بجنازة امه ، فهذا المنظر لا يبرح مخيلته . وهو لن ينسى النعش الذي انتثرت عليه الزهور ، ولا الاكاليل التي تقدمت النعش ولا بساط الرحمة الذي كان يمسك باطرافه اربعة من رجال الجمعية الخيرية ، وكذلك لن ينسى الشموع المحترقة ، ولا نداءه المتواصل لها ، ماما ! ماما ! وهي في صمتها لا تجيب ولا تسمع .

وكثيراً ما سبب له تفكيره في الحادث فزعاً شديداً وخاصة في الليل ، وقد اخذ خياله يستعرض الحادث بكل تفاعيله كأنما هو يرى شريطاً سينمائياً ، ويلتهم بعين مخيلته المنظر مستسلماً له ، راضياً عنه ان يسبب له الفزع والخوف ، ولكن في النهاية يتغلب الخوف عليه عندما يتذكر المقبرة ، فيصيح ويهرع الى والده ، فيتلقاه بين ذراعيه ، ويضع يده الكبيرة على كتفه ثم يسير به الى فراشه ، ويجلس الى جانبه يهدىء روعه ، ويسليه بالحديث ، حتى يتسرب النوم اخيراً الى اجفانه .

ولكن الآن ما ان تمثلت له هذه الصورة ، حتى اشاح ببصره عن الافق ، واقترب من والده : « ابي ، انا خائف ! دعنا نعود . لماذا يجب ان اكون في مدرسة الايتام ؟ » .

وصعب على الوالد ان يفسر له لماذا يجب ان يكون في مدرسة

الايتام ! ولكنه التفت الى سمير وقال بشيء من الجد : « سمير ، ما هذا ؟ انا لا اعهدك بمثل هذا الجبن . متى كانت المدرسة تسبب لك مثل هذه المخاوف ؟ »

وكبت سمير ما في نفسه ، فهو وإن كان يحب والده ، الا انه يحس بشعور غريزي باختلاف هذا الوالد عنه ، فهو عمليّ واقعي ، وليس مثله فريسة اجواء الطبيعة ومناظرها . اما امه فهي وحدها التي كانت تشاركه كآبة الخريف ، وبهجة الربيع ، ورهبة الجبال ، ووحدة الوديان .

ودخل سمير ووالده الى المدرسة ، فاستقبلهما المدير بالترحاب . وبعد ساعة ، ودّع سمير والده في تأثر بالغ .

وعندما حان وقت العشاء ، جلس سمير مع عدد من الاولاد الى مائدة طويلة ، دون ان يتمكن من تناول شيء من الطعام ، واخذ ينظر الى الصبية وهم يلتهمون الطعام بشهية وسرعة ، وكانما هو ينظر الى معجزة . كيف ياكلون ؟ بل كيف يستطيعون ان ياكلوا ؟ ، وشعر بعينين تتابعانه .

« لماذا لا تأكل ؟ » كان هذا صوت العريف « حسن » .

نظر سمير اليه نظرة باردة ولم يجب .

« اسمع .. يا .. ما اسمك ؟ نعم ، سمير .. اسمع يا سمير . انا

اسمح لك ان تعرض الليلة عن الطعام ، فأنت لا تزال حديث العهد بقوانين المدرسة ، وقد تكون أكلت شيئاً قبل الحضور الى هنا ؛ ولكن هذا لن يطول ، فالاكل اجباري في مواعيده هنا»

وقال سمير في نفسه « لن آكل حتى ولو حدثت المعجزة ، وجعت ! ... »

وبعد العشاء خرج الصبية الى الملعب .

اما سمير فقد وقف تحت شجرة من اشجار الصنوبر ، واحس بحزن صامت جميل ، يتسرب الى نفسه ، ألهاه عن البرد الشديد .

اما الشيء الجميل الذي ظفر به سمير ، فهو هذه الصورة التي لم تزل تتحرك في مخيلته وتنمو وتتسع عندما نبهه والده الى منظر الافق .

إنه الآن يرى الافق متوهجاً ثائراً بالوان الغروب ؛ فالاشعة الاخيرة من قرص الشمس كانت تتصارع مع جيوش الظلمة الزاحفة . وخيل اليه أن الناس لا يزالون سائرين في جنازة امه عند التقاء السماء بالارض ، ولكن اذا بأمه انبعثت من مكان آخر في ثياب بيضاء ، وشعرها الاشقر الطويل يتهدل على كتفيها ، وقد مدت اليه يديها النحيلتين من المرض تدعوه اليها .

وما ان اكتملت هذه الصورة في مخيلته حتى خفق قلبه من

خياله الجامح ، ومن حزنه المتجدد على امه ، ومن هذا الجو الغريب الذي وجد نفسه فيه . واخذ يبكي وكان وهو يبكي يحدق بالأفق ، كأنه يفرق ان أغمض عينيه ان تختفي صورة هذه الأم التي ذهبت وتركته وحيدا .

« ماذا تفعل هنا يا سمير ؟ »

والتفت فوجد العريف حسنا واقفا بجانبه ، وشعر بميل شديد لان يتحداه ... « وحتى الى هنا تتابعني ، اسمع ، ليكن معلوما لديك أني لن اتناول طعام الفطور في الغد »

« ولماذا ؟ »

« لان هذه هي ارادتي . بامكانك ان تذهب وتشكوني الى المدير سلفا » .

« ولكن لماذا تبكي الآن ؟ »

« وهل هذا من شأنك ايضاً ؟ »

« لا ، ولكني لا احب ان اراك باكيا »

هذا ليس من اختصاصك

« في الواقع .. انت مصيب ، ولكن أظن اني اعلم كيف تشعر الان . نحن جميعا نحس مثل هذا عندما ندخل المدرسة للمرة الاولى ، ونتحقق ان هؤلاء الذين رحلوا عنا لن يعودوا الينا ،

مهما بكينا . ولكن بعد هذا علينا ان ننسى او نتناسى » .

وحدق سمير في العريف حسن فترة طويلة ثم ادار وجهه وقال : « اما انا فلن استطيع ان انسى . انت لا تعرف امي » .

« اذن فقد فقدت امك ؟ »

« نعم »

وبعد لحظة جاء صوت العريف متأثراً « وانا كذلك .. وبعد عامين توفي والدي ايضاً »

أأنت بدون والدين الآن ؟ »

« نعم .. ولكن تعال معي . الا تريد ان تتعرف الى الطلبة؟ انظر الى ذلك الولد فهو امهر الطلبة في القفز العالي . اترى ذلك الولد الاسمر الصغير ؟ لقد كان عمره ثلاث سنوات عندما أُدخل الى المدرسة . انه اصغر الطلبة ، ونحن نسميه « غزالا » ثم نادى. غزال ! تعال الى هنا وأرنا كيف تستطيع ان تسير على يديك .

وما اسرع ما كان غزال يسير على يديه ، وقد رفع رجليه الى الاعلى ، واعطى حسن غزالا قطعة من البسكويت جزاء له على سيره . ثم التفت الى سمير وعرض عليه أن يأكل شيئاً ، فهو لا شك قد أخذ يحس بالجوع . ولكن الاخير حول وجهه عنه .

وقال له حسن ضاحكاً « انصحك ان تأكلها حتى تتمكن ان تستمر

صائماً في ساعة الافطار » . ولكن سميراً رفض الأكل رغم انه اخذ يحس بالجوع .

وتوطدت صداقة عظيمة بين حسن وسمير ، ومع الايام وجد سمير في حسن الشخص الذي يستطيع ان يسد جزءا من الفراغ الذي احدثه موت امه في حياته . ولم يكن حسن رساما ، ولكنه احب سمير ، ودفعه هذا الحب الى ان يتابع رسمه ، وحرص على نجاحه . وكان سمير بدوره معجبا بحسن ، وخاصة بقدرته على كسب ثقة المعلمين والطلاب ، ثم بنخوته ومسارعته الى النجدة ، وباهتمامه بالناس ومشاكلهم مهما كانت طبقاتهم او وجهات نظرهم ، حتى خدم المدرسة أحبوا حسنا ، ووقعوا تحت تأثير شخصيته الجذابة ، فهو ابداً يعطف عليهم ، وهم ابدا يحتكمون اليه في خصامهم . حتى الزارع « ميلاد » الذى كثيرا ما كان يتخاصم مع زوجته طباخة المدرسة حول الحصول على أجرها ، كان يرضخ لحكم حسن ، وارادته وتوبيخه بانه يشين الرجل ان يأخذ تعب « الحرمة » .

ولكن علاقة سمير مع حسن فاقت كل علاقة سواها ، فهو قد وجد فيه صدى روحه ، وقد ارتبطت حياتهما باوثق العرى ، واثبت الاواصر . واصبحا لا يستمتع الواحد منهما بنكتة او حديث او كتاب او منظر ، الا والآخر شريك له

كان كل منهما معجبا بالآخر ، ولعل هـذا احد العوامل التي تقوي ربط الصداقة ، وتولد احـترام الواحد للاخر ، وكان كل منهما يشعر ان بامكانه ان يستفيد من الآخر ، ولذا كنت تراهما يستهدفان الرجولة الكاملة ، دون ان يشعرا بسعيهما هذا ، وكأن الواحد منهما لا يريد ان يخيب ظن صديقه فيه .

قال حسن لسمير في احد الايام « أنا اغبطك عـلى جلوسك الساعات الطوال صامتاً وحيداً في الغابة . ولو كنت ساقوم انا بمثل هذا التأمل او العبادة لمرضت اشهراً »

واجاب سمير « اما انا فاغبطك لاستطاعتك ان تعاشر الناس على اختلاف انواعهم واعمارهم ، وان تحادث اولادا في روضة الاطفال ثم تذهب لتستمع الى شكوى زوجة ميلاد في المطبخ. ولو كلفت انا القيام بمثل هذا ، لمرضت اعواما » .

وحان موعد العطلة فافترق الصديقان . وبعد ايام تلقى حسن الكتاب التالي :

عزيزي حسن

لم يعد البيت ملاذ ذكرياتي المقدسة ؛ ففي البيت امرأة اخرى اصبحت سيدته ، وانا لم اعد اطيق العيش فيه لحظة اخرى ، ولذلك تراني انتظر العودة الى المدرسة على أحر من الجمر . فهنالك

على الاقل الحرجة الكثيفةالتي نقضي فيها اوقاتاسعيدة نحلم ونتأمل. اما المرأة التي في بيتنا الآن فهي مبذرة ، وبعيدة جداً عن الفن وروح الفن ، ثم هي لا تحبني يا عزيزي . وقد يكون الذنب ذنبي ، فلو استطعت ان اتعلم منك الاهتمام بالناس ، والرغبة في التعرف عليهم ، لاختلفت معاملتها لي ؛ فلا شك انها ضاقت ذرعا بالفتى الذي يقضي نهاره شارداً او يرسم ، ولايستطيع الخروج عن نفسه .

اكتب اليّ يا حسن ، فرسائلك تسلية كبيرة لي ، اعيش عليها ، حتى اعود فالتقي بك في المدرسة .

سمير

وعاد الصديقان فالتقيا ، ومرت الايام سراعا ، واستفاق سمير لنفسه فوجد ان حسنا سيذهب لغير عودة ، فقد انهى دورته التدريبية ، وسيعمل نجاراً في مصنع للأثاث في حيفا .

واستأجر حسن غرفة وضيعة الشأن في المدينة المتكبرة ، ولا شك انه كان يلاقي الحياة صعبة شاقة ، وهو يركض وراء الرغيف الاعفر ، ثم يعود الى غرفته الموحشة ، فينام ليستيقظ في الصباح الباكر ، ويسعى سعيه الشاق وراء الرغيف الدائم الجريان .

ومرت سنون أخر ، ووجد سمير انه هو الآخر قد انهى



دراسته في مدرسة الايتام . وحار سمير في امره فهو جد راغب في دراسة فنية منظمة ، ولكنه وجد ان حالته المادية لا تسمح له بتحقيق هذا الامل ، فقد اصبح لوالده اربعة اولاد غيره ، مما جعل حالة الوالد المادية ، بسبب اسراف زوجته الجديدة مضعضعة ، وعلى شفا الفقر . وظروف مثل هذه حالت دون سمير ومواصلته للدراسة الفنية التي يحلم بها .

وذهب سمير الى حيفا ليزور صديقه حسن . وقال له في احد الايام :

هيا بنا الى الكرمل ، اريد ان اريك شيئاً ، وأحبُ ان تراه في جوف الغابات .

وفي جوف الغابة كشف سمير عن لوحة متوسطة الحجم . وكانت الصورة تعرض سلسلة من الجبال الزرقاء ، ومن خط الافق يطلّ وجه امرأة في ثياب بيضاء ، ويحيط بوجهها هالة من الشعر الاشقر ، الذي ينسدل على كتفيها كثيفا لامعا كخيوط الشمس ، وفي الوجه بياض وشحوب ، لكن يشع من العينين نور غريب على نقيض من شحوب الوجه وشروده ، وفي العينين نداء حار . وقد افترقت الشفتان في شبه إعياء ، كأنهما تعبتا من كثرة النداء . اما اليدان الممدودتان الى الأمام

فتحيلتان ، ولكن الحياة متمثلة فيها ، وكأنهما مشتاقتان الى لمس احد .

اما السماء فتتوهج بالوان عميقة ثائرة ، تتناقض مع زرقة الجبال الهادئة الرائقة .

وبقي حسن صامتاً مدة طويلة . اما سمير فقد ادار وجهه عن الصورة واخذ يعبث بإبر الصنوبر الجافة بحركة عصبية .

وقال حسن بعد صمته الطويلة : « هذه اجمل وأجلّ صلاة تصعدها الى امك ؛ فانا لا اشك انها ترمز الى امك ، ولكني أرى انها استنزفت منك مجهوداً كبيراً ، بل الاصح عاطفة عظيمة ، مرهفة .

وهنا اقترب سمير من الصورة وجللها بالغطاء وحملها بعناية ، وسارا صامتين .

وأفاق حسن في احد الايام وهو يحس بتوعك وارتخاء ، وحاول القيام للذهاب الى عمله ، فمنعه عن ذلك ضعف ودوار في رأسه . وارتفعت درجة الحرارة ، واستدعى سمير الطبيب .

وبعد أيام ، وبعد فحص الدم ، قرر الطبيب ان حسنا مريض بحمى التيفوئيد .

واوقف سمير كل ما يملك من قوة ومال للاخذ بيد صديقه .

واكتشف للمرة الاولى فقر هذا الصديق، وضعة حاله. واستغرب ان لا تلفت نظره هذه الناحية من حياة الفتى قبل الآن. لقد كان يتصور أن حسنا فوق الفقر، وفوق العوز، ولما حاول ان يعلل هذا الوهم في نفسه، وجد ان حسنا له من غنى نفسه وعظمها واتساعها، ما جعلها فوق الفقر وفوق المرض.

ولكن مرض حسن سمح لسمير أن يرى ويلمس فقر صديقه، وشقاء حالته، فقد عصفت الحمى بشخصيته العذبة الجميلة، وكانت من قبل تسيطر على كل ما حولها، وتبعث فية النور والحرارة. أما وقد اذلها المرض، فقد اطل الفقر من كل ناحية، يحدق في وجه سمير فرأى فراش صديقه البالي، واثاث غرفته القديم، وثيابه المهلهلة، وطعامه المتواضع، وتحركت في قلبه شفقة كبيرة على هذا المجاهد الذي تذيقه الحياة مرارة وعسراً ويبّش هو في وجهها، شاكراً قانعاً.

ولكن الفتى المريض يهذي ويثرثر، وهو في غيبوبة لا يتعرف فيها الى صديقه. وهلع قلب سمير، وهرع الي الطبيب، فهز الطبيب رأسه قائلًا: «يجب ادخاله الى المستشفى حالا، فمقاومته ضعيفة جداً. وانت ايضاً يجب الا تجلس اليه بهذه الطريقة، عليك ان تحترس من العدوى».

وبعد ان ادخل حسن الى المستشفى ، وقف سمير حائراً . والمال ، من اين يأتي به ؟ ايطلبه من والده ؟ ولكنه طرد الفكرة من رأسه سريعاً عندما تذكر ارتباك حالة والده. وتردد لحظة ثم سار باللوحة الى دكان للصور . وخرج وفي جيبه عشرة جنيهات .

وكانت اياماً عسيرة جداً ، تأرجح حسن فيها بين الموت والحياة ، وانتصرت الحياة في النهاية

واحس سمير بسعادة خفية تستولي عليه ، وهو يرى صديقه يسير نحو الشفاء . وهذه السعادة غريبة على نفسه ، فهي لا تشبه مثلا شعوره وهو يحسن التعبير عن فكره او صوره ، فيسري الى نفسه هذا الرضى والاطمئنان الذي يشعر به عادة كل فنان اذا ما اهتدى الى التعبير عن الفكرة التي تحوم في رأسه .

ولكن هذه السعادة كانت اعمق ، مما جعله يسائل نفسه :

« أهذا ما يحس به حسن وهو يحتك بالناس ، ويتعرف اليهم ويتقرب منهم ، وينجدهم اذا ما اقتضى الامر الى النجدة ؟ واذا كان الامر كذلك فظفر حسن بالسعادة اعظم منه واسمى . ثم هو لا يشك بعبقرية هذا الصديق ، الذي كأنه قوة من النور تخرج النور او تبعثه فيمن تحتك بهم وتتعرف اليهم .

وسأل حسن في احد الأيام سميراً عن الصورة . ورجا أن يسمح له بان يراها ثانية .

ولم يجب سمير ، بل غيّر موضوع الكلام . وفي المساء عاد الفتى المريض فسأل عن الصورة ثانية . وبدت الحيرة في وجه الفنان ثم اجاب :

« آه ... انا لا احب تلك الصورة ففيها كثير من التصوف »

« ولكني اريد ان اراها »

« سأريك غيرها بعد اسبوع »

وادرك حسن ان الصورة ليست موجودة، فتململ في فراشه ثم قال :

« ماذا عملت بالصورة ؟ »

« لقد مزقتها »

« هذا ليس صحيحاً ، بل ليس معقولا ؛ قُل إنك بعتها لكي تدفع أجر اقامتي في المستشفى ! »

وخبأ حسن وجهه بالغطاء ، وكان في وجهه ألم شديد .

واقترب سمير من فراش صديقه :

« بربك ، حسن ، ارجوك ! »

وخيل الى سمير ان حسناً ينتحب وهو يقول : « لن اغفر

لنفسي ان جعلتك تبيع صورة امك ».

وانتهره سمير في هذه المرة : « كفى ، دارِ صحتك أيها الفتى ، ما هي الا ورق وخطوط والون » .

« لا ، لا ، لم تكن هذا ، بل هي الصلاة التي أصعدتها لامك»

« نعم ، ولكني عندما بعتها كنت اصلي صلاة اعظم واسمى . اؤكد لك ان امي ستكون سعيدة جداً إزاء تساهم هي الاخرى في مساعدتك » .

ساعة الرحيل

جاهد المريض لينطلق لسانه بالكلام ، ولكن من دون جدوى. كان يحس ان حجرا ثقيلاً يتوسد صدره وان لسانه مربوط

ولكن فكره كان صافياً . . . صافياً جدا ، وان بدت عيناه كالزجاج

وعندما تأمله الطبيب توهم انه في غيبوبة ، وجزعت زوجته وابنته عندما نظرتا في عينيه ، وصدرت منها ولولة كان لها اسوأ الاثر في نفسه .

وكان يعلم انه يسير الى الهاوية . . . هاوية الموت ، وانه ليس بامكان احد ان يساعده ، ولكنه لم يكن خائفاً ولا منزعجاً

طبعاً إنه لم يكن سعيداً أيضاً ، ولكن احساسه كان شبيهاً بمن ينتظر القطار في رحلـــة لا عودة منها . وثمة شعور آخر كان يستولي عليه ، فهو يحس انه لم يعد ينتمي الى المحيط الذي حوله

مما البسه شعورا بالقوة وعدم المبالاة ، ولذا فقد أخذ ينظر الى الاستلطاف الذي يجري بين ابنته والطبيب بشيء من السخرية والهزء .

لقد رآهما وهما يمسكان الكوب سويا ، فتتلامس اصابعهما مدة طويلة ، ورآهما وهما ينظران احدهما في عيني الاخر نظرات طويلة وكان يعلم انه لو كان مثلهما حيا لصفع الطبيب على وجهه ولكن في هذه الساعة بدت الاشياء وقيمهـــا كبيوت الرمل التي يبنيها الاطفال على شاطىء البحر ثم تأتي الامواج الكبيرة فتجرفها ، بل ألاصح ان يقول مع النبي داود « الانسان مثل العشب ايامه كزهر الحقل ، كذلك يزهر لأن ريحا تعبر عليه فلا يكون ولا يعرف موضعه بعد » . ولكن بوده لو يستطيع الكلام ليقول لابنته ألا تعلق الكثير على غرام الطبيب فهذا الغرام من نوع التسلية وقتل الوقت فقط . انه يعلم ايضا ان زوجته بلهاء كبيرة ، فهي ايضا ستندفع مع ابنتها في مهمة جذب الطبيب ، اذ لا يهمها فى الدنيا إلا زواج ابنتها .

وهنا رأى الطبيب وهو يجذب ابنته من ذراعها ، وسمعه وهو يقول «لاتبكي ! إن دموعك تجعل قلبي ينزف دما» اما هو فقد شعر ان ابنته لم تكن تبكي في تلك اللحظة من اجله ، وانما لتثير شفقة الطبيب .

وفجأة ادرك انه يقتل الوقت : الوقت القصير الباقي، والذي يجب ان ينفقه في الصلاة . . . انه ظامىء الى الصلاة . واخذ يستعيد في نفسه احب المزامير اليه : المزمور الذي رافق حياته دائما «الرب راعيّ فلا يعوزني شيء». وفي لحظة واحدة اختفت السنون من امامه، فاذا به صبي صغير يسمع المزمور للمرة الاولى، ويؤلف انطباعاته الخاصة عنه . . واصبح المزمور يذكره دائما بمنظر الراعي الذي يسير في ساعة الاصيل، بينما تتماوج في السماء الوان الغروب. إن شيئا من السلام والطمأنينة كان يسري الى قلبه عندما يستحضر مثل هذه الصوره الى مخيلته. ثم «المراعي الخضر» و «مياه الراحة» هذه الكلمات كانت تصور له السماء . . ليس السماء الاصطناعية التي رسمها رجال الكنيسة وفنانو القرون الوسطى، ولكنها السماء الطبيعية التي كان اقرب شيء اليها جبال بلدته الهادئة الوادعة واوديتها العميقة المنعزلة، وهذه الريح المنعشة الحنون التي تنساب في الاودية، وتعابث الزهر على رؤوس الجبال. وايضا «اذا سرت في وادي ظل الموت» . . . وادي ظل الموت كان دائما يخاله طريقا ضيقا رمادي اللون يخيم عليه صمت غريب، وظلام حزين ولكن الله يسير معه رائعا عظيما وقورا يعزّيه بعصاه وعكازه . انهما يسيران سويا، ثم يخرجان الى النور . . الى السماء . وكم يطمئن

هو الى «ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقي» والدهن الذي يمسح به راسه

واحس بسلام عظيم يخيم عليه وباتساع كبير ينفرج امامه ، سلام لا قرار له واتساع لا نهاية له

وهنا كأنما في هذا الفضاء المتناهي سمع صوتا خافتا يقول : «ارجوك يا سيدتي ان تحتفظي باعصابك انت ؛ بذلك تحطمين قلب ابنتك . ان الموت قاهر العباد . . . ليس منه مهرب

وجاء الرد حاراً : دكتور ؛ اليس في الامكان ان نعطيه ابرة توقظه . . . ليرانا ونسمعه لآخر مرة . . . ثم علّنا نستطيع ان نظفر منه بوصية تؤمن مستقبلنا بما حوته ... لم اكن اتوقع ان تتهاوى حياته في هذا الوقت القصير ! حسرتي عليكِ يا وداد، ماذا سيحل بكِ وأنت ابنة العز والدلال ؟ !.

وجاء رد الطبيب ممزوجا بمعنى غامض: «مادا سيحل بها ؟ ان شاء الله ! » خير وهنا ازداد الثقل على صدر المريض ووقع في غيبوبة طويلة ، حل في اثنائها الحيرة والحزن والشقاء على قلب الام وابنتها ولكن وجود الطبيب كان يلطف الجو احيانا ويطرد شبح الموت من مخيلتهما .

وانتفض المريض فجأة . . . وكان شديد الظمأ واخذ يجاهد ليحرك يده يشير بطلب الماء ، وكان يحسب انه يحرك يده ولكنها

في الواقع لم تكن تتحرك .

ولاح في الباب طيف أدخل الفزع والخوف على قلب الام وابنتها ، لقد كان الخوري ويتبعه القندلفت ، وقد حضرا ليناولا المريض المحتضر.

واخذت الدموع تنهمر من عينيها بينما أخذ اقرباء العائلة يفدون الواحد تلو الاخر حتى امتلأت الغرفة وازداد العويل والتحسر اما هو فكان يجاهد ليحتفظ ببقية من صفاء ذهنه ليسمع كلمات الكاهن وهو يناوله القربان ويقول : « كأس الخلاص اتناول وباسم الرب ادعو »

وبعد تناول القربان .. لم يعد شيء يستحق من اجله ان يجاهد للاحتفاظ بصفاء ذهنه ، بلى بقي عليه وداعه لزوجته وابنته واخذ يجاهد ليحرك يده ، واحس بأيديها وهي تسعى لمعانقة يده الباردة الثقيلة وكان ذلك كافياً ليشعره بالشكر والسعادة والرضا . . . وانه لايزال من سكان الارض ، فهذا الرباط كان وثيقاً ورائعا ولكنه بالرغم من هذا اخذ يحس انه يرتفع عنه . ليته يستطيع ان يقول لهما ماهو الموت . انه انتقال ... انه تغير ... انه تجديد بل انطلاق وانعتاق ... بل وجهة نظر جديدة ، ومجال آخر للجهاد والاتصال مع الله .

وتصارعت الحياة والموت واسلم المريض الروح

وكان اشد ما آلم الفتاة ان مراسيم الموت واجتماع النسوة وعويلهن والحانهن المهيجة لم تساعدها على ان تستذكر والدها ، بل احست انها فقدته وانه اختفى من حياتها. فاستولت عليها الحيرة والتعاسة والوحدة ، وهي الحريصة على ان تظفر بذكراه ، فقد امست هذه الذكرى السبيل الوحيد اليه .

ومع الزمن قلّ قدوم المعزيات وخيم على البيت صمت وحزن

ومن غرفتها الصغيرة ومن خلال الستائر المتماوجة ، كانت ترى غيوم الخريف تزحف إلى السماء ، كأنها تماسيح جبارة ، ولكنها تماسيح هادئة واثقة من نفسها ، تسيطر على السماء .

وكانت الحديقة المهجورة غير المنتظمة تثير في نفسها ألماً هادئاً ، فهذه الحديقة الصامتة التي سيطرت عليها ارادة الخريف ، كانت تعيد لذاكرتها عهد طفولتها ، وتحاول هي عن طريقها ان ترى والدها وتستعيده الى حياتها ، ولكن عبثاً كانت هذه المحاولة لقد استطاعت ان تذكره اجزاءً ، الا انها لم تستطع استذكاره جملة وهي تعلم انها إذا استطاعت إدخاله ثانية الى حياتها فستستمد من هذا الاثر القوة والشجاعة ، حتى لمواجهة خفقات قلبها عند ذكر الطبيب الشاب .

وفي احد الايام وبينما الفتاة واقفة في النافذة تقابل الحديقة

التي خلف الدار ، وتشعر بالحزن لأنها اخفقت في استعادة والدها الى حياتها أحست بريح قوية تدفع بالستائر وخيل اليها ان أمرا سيحدث ، وان كل شيء معد وجاهز له واخذت تجاهد لتستعيد ذكرى والدها لتتصل معه ، لتشعر انه لا يزال معها ، يكوّن جزءاً من حياتها ؛ ولشدة رغبتها هذه خيل اليها انه سيفتح باب الغرفة ويدخل كعـــادته .

واخذت اوراق المشمش الصفراء تتساقط من الشجرة الوحيدة في الحديقة الصغيرة واخذ قلبها يخفق .. انها تنتظر شيئا ... ما هو ؟ انها تنتظر الكهرباء تسرى في الاسلاك ... انها تنتظر اللحن ينبعث من آلة موسيقية .

وفي لمحة واحدة قصيرة الاجل ، حتى كأنها ليست من الزمن ولكنها تشتمل على رؤيا عظيمة ، رأت والدها يمسك التوراة الكبيرة القديمة والى جانبه كانون النار ، بينما شغلت هي باعداد دروسها ، وبينما اخذت الام تقترح رقعة غداء اليوم التالي ، وهي ترتق الجوارب ، في غمرة كل هذا يرفع هو نظارتيه عن عينيه ويلتفت اليها ويقول بصوت رزين وقور : يا ابنتي ما اجمل هذه الكلمات : الرب راعيّ فلا يعوزني شيء .. ! احفظيها يا ابنتي ، انها رؤيا خـــالدة ، وسلوى متجددة .

وضمت الفتاة يديها الى صدرها، وقد اشرق وجهها ، لقد وجدت ذاك الذي تفتش عنه .. لقد سرى النور مرة ثانية الى حياتها ، وستعاودها الثقة والاطمئنان .

واخذت تتمتم كلمات المزمور ببطء ، وكأنها تسمعها للمرة الاولى ، بينما اخذت عيناها تحدقان في الافق البعيد حيث بدت الجبال الزرقاء بقننها البيضاء ، عالماً بعيدا غريبا ، عالماً سماويا ، فيه المراعي الخضر ، فيه موارد المياه ، وفيه الراحة والسلام ، ولربما فيه أيضاً والدها الذي عاد ثانية الى حياتها .



فتاة موهوبة

هكذا سردت لي صديقتي قصة الفتاة الموهوبة

تعلمت لمياء في مدرسة من مدارس الراهبات التابعة للمؤسسة الفرنسية للتبشير ، وما أسرع ما لحظت الراهبات ميلها الشديد للموسيقى ، فحبونها بالعطف والاهتمام المأثورين عن الراهبات عادة

وقد تغلغلت انظمة هذه المدرسة ، وما يتبعها من حياة اجتماعية ودينية في حياة لمياء الى ابعد حد ؛ وهو امر طبيعي ، فقد نشأت في هذه الحياة وألفتها واطمأنت اليها ، تحفظ الصلوات جميعها عن ظهر قلب ، وتؤدي فروض العبادة باشكالها الكثيرة في كنيسة الدير الضخمة ، حيث انتصبت تماثيل القديسين والعائلة المقدسة ، واكثرها منحوت من الحجر الابيض الجميل ، تحيط الرؤوس منها هالات من انوار المصابيح الكهربائية ، كذلك علقت فيها صور ثمينة منقولة عن آيات الفن ، فكان فيها مثلا صورة والعائلة

المقدسة » لرفائيل ، والعشاء الاخير « لدافنشي » . ولكن لمياء تنسى كل هذا إذا ما ابتدأت مراسيم العبادة، واخذ عازف الارغن يعزف الانغام الرائعة ، التي توارثتها الاجيال عن آباء الموسيقى الأول . وتخشع الفتاة عندها ، وتنسى نفسها ، فكأنما ايمانها وعقيدتها ممزوجان بالالحان الجميلة ، او هي لا تتحسس هذا الايمان ولا تستطيع ان تعبر عنه الا عن طريق هذه الأداة الخالدة في حياة الناس . ولمياء كذلك تتقن اللغة الفرنسية ، وتشترك في حفلات التمثيل التي تقام في قاعة المرسح الفخمة، ولكن ليس هناك ما يعـــدل فرحها في يوم «خميس الجسد » حين تلبس ثوبها الابيض الطويل ، وتضع على رأسها منديلاً طويلاً من التيل ، ومن فوقه اكليل من الورود البيضاء ، وتسير مع مئات غيرها من الطالبات والرهبان والراهبات وتلاميذ المدارس في المهرجان الرائع .

واستفاقت لمياء يوما الى نفسها فوجدت انها انهت مدرسة الراهبات ، وقد تبرعت المؤسسة بأن تبعثها الى باريس – الى معهد الموسيقى ، لتواصل دراستها هناك .

وسارت السفينة تبعدها عن الوطن العزيز ، ولم يكن ما يكدر عليها صفو هذا الرحيل الا مفارقتها لوالديها ولاخوتها الصغار ، فقد احست عندها كم تضمر لهم جميعاً من الحب والحنو ، وكيف انها

ستشتاق دائماً الى البيت المتواضع في حي من أحياء بلدتها البسيطة الحال .

ولكن الفتاة عندما التفتت ووجدت ان حياتها الجديدة في مدينة النور إنما هي حياة في عالم الالحان ، رقص قلبها طربا ، واشتعلت روحها لتعانق هذه الالحان ، وتكتسبها ، فكأنما موهبتها العظيمة نبتة هيّئ لها الماء والشمس والهواء ، فارتفعت نحو السماء خضلة ريّى فكان معظم وقتها موزعاً بين ممارسة العزف واتقانه من الناحية الفنية ، وبين التزود من الروائع التي جادت بها عبقرية ارباب الموسيقى

وقضت الفتاة اربع سنوات ، عادت بعدها ، وقلبها يطفح ، ونفسها ممتلئه ، وكأنما غدت هي نفسها لحناً جميلاً ، ترى كل شيء بمنظار هذا الفن المقدس ، تنذر نفسها عندما تحدق بالنجوم المتلألئة في ليالي الصيف ، انها ستوقف نفسها متعبدة في هيكل الالحان . واخذت الفتاة تصلي في محرابها بحرارة وايمان ، وكانت تستجاب صلاتها ، الحانا ملهمة ، رقيقة كرفرفة اجنحة الملائكة حينا وصارخة كثورة الجبابرة احيانا ، بهجة مشرقة كابتسامات الأطفال ووقع خطاهم السريع تارة ، وحزينة مفكرة كخطوات الشيوخ في خريف الحياة اطوارا .

وكانت هي كغزالة ماهرة ، تغزل من كل هذا الحانا للحب

والصبا والجمال ، وللالم والفشل والهزيمة ، ولم يكن يدري بها احد ولم يكن يهمها ان يدري بها احد.. فقد اختارت اصدقاءها عباقرة الموسيقى وآباءها ، وهي معهم على وئام تام ترى صورهم وسير حياتهم فيخيل اليها انهم يهزون رؤوسهم اعجابا ورضى عند اللحن الجميل ، ويقطبون جباههم ، ويحولون وجوههم عنها ، ان تنافرت النوطات ولم يتّسق اللحن ، ثم ينزوون بين دفات الكتب في ألم وحيرة.

« ثم »

ونظرت اليّ صديقتي بعد صمتها الطويل ، واستطردت قائلة «سمعت كل هذا عنها ، فخفق قلبي شوقا لملاقاتها ، وبعد مشقة كبيرة توصلت اليها .. ولكني لما رأيت الفتاة التي طالما سمعت عن مواهبها وعن الفرصة السعيدة التي حظيت بها فمكنتها من التزود من روائع الموسيقى ، نعم ، لما رأيتها شعرت بأني امام فتاة قد نفد منها ماء الحياة ، فهي ذاوية شاحبة ، وفي عينيها اللتين وضعت عليهما نظارتين سميكتين ، حيرة وصمت ، كأن لم يبق من البريق إلاّ رماد بارد . واستقبلتني بأدب جم ، ولما اخبرتها عن سبب زيارتي ، شكرت لي تقديري لها ، وما تكبدته من المشقات في سبيل الوصول اليها ، ولكني لما طلبت منها ان تعزف لي شيئاً من مؤلفاتها ، او مما تحفظه ، اعتذرت عن ذلك بسبب قلة التمرين ، فقد مرت اربع سنوات دون ان تضع اناملها على البيانو .

وصعقت انا بدوري ورددت « اربع سنوات ؟ » فنظرت اليّ كمجرم وقالت « نعم »

– « ولماذا ؟» وذكرتها بالمثل الفرنسي الذي يشير الى وجود البيانو ونكرانها للجميل لمن يهملها ولو قليلاً »

فلم ترد على اشارتي ، وكأنما رأت الخيبة في عيني فقالت « اني لن ارد طلبك ولكن يجب ان تغفرى لي بدورك ارتباكي من قلة الممارسة ».

وعزفت الفتاة قليلاً ، ورغم ارتباكها ، شعرت بالموهبة العظيمة التي اسبغت عليها ، وذكرني عزفها بآنية جميلة دقيقة الصنع قد سقطت وانكسرت .

ولكن الفتاة اقفلت البيانو بسرعة وقالت .. آسفة كنت اظن نفسي استطيع اكثر من هذا ... ولم تلتفت اليّ طويلاً ، وخيّل اليّ ان دمعة قد همت من عينيها بالرغم منها

ونظرت اليها ولم استطع ان اكبت نفسي عن ان اقول « ولكن لماذا ، لماذا هذا التهاون بهذه المنحة الثمينة؟ » واستدركت « آسفة ! ارجو ألا اتدخل بشؤونك الخاصة . ولكن انت تملكين شيئاً ثمينا جدا » .

واجابت الفتاة بأنها شاكرة جدا لتقديري وتشجيعي ، وحريصة

على صداقتي ان كنت راغبة في ذلك ، وقد تخبرني في احد الايام عن هذا الذي جعلها تهمل فنها الجميل .

. . . .

مرت الايام وتوطدت بيننا اركان الصداقة ، وقدر لي ان اعرف سبب تلك الصدمة . قالت لي يوما « كيف تشعرين يا ماجدة لوفوجئت يوما بان تكتشفي ان ما تملكينه ليس لك ؟

وسألتها : ماذا تعنين ؟ اننا لا نملك الا ما هو لنا ، والا ما كان في حوزتنا ، ولكني اظن اني افهم ما تعنين ... فلا شك انها صدمة كبيرة لفلاح مثلاً ، أحبّ ارضه ، ان يدّعيها شخص آخر ، وتثبت دعوى المدعي ، أو مثلاً أن يملك شخص بيتاً جميلاً ثم يفقده ... شيء مؤلم جداً .. »

وجاء صوت لمياء يقول « وان لم يكن هذا المفقود شيئاً .. انما كان انمن ، وكان المالك قد اطمأن اليه ، يفزع اليه ، ليلقي عنده جميع اعبائه ومشاكله » .

« لمياء ما هذا الذي تقولينه ؟ هذه ألغاز لا أفهمها . ماذا ؟ أبإمكان المرء ان يحوز ثم يفقد على النحو الذي تصفين الا ان يكون سلعة او متاعا ؟ »

واجابت لمياء ببطء « ألا يمكن ان يفقد والديه ؟ »

فاسرعت الى القول « ولكن والديك على قيد الحياة »

« نعم ولكن عليّ ان أتعلّم انهما ليسا والديَّ »

ولم أدر بما اجيب .

واستطردت صديقتي « لا تفتشي في الكتب عن الغرائب ، فليس الناس بامهر من الحياة في حبك المصادفات العجيبة . وساقص عليك الآن احدى هذه المصادفات التي كنت انا ضحيتها أو ثمرتها فلست ادري – وانتهت بي الى اني لا ادري من انا ولا من اين انا ، اذ اني لست ابنة هذين اللذين عرفتها دوما بانهما والداي ، فانا في الواقع ابنة قوم اثرياء ، جاؤوا من مصر الى فلسطين ، وكانت الزوجة حريصة جداً على ان يكون المولود صبياً ، ولكن المولود لم يكن صبيا . انما كان انا ... وكانت في المستشفى نفسه امرأة اخرى قد ولدت صبيا. فحدث البدل، بقوة اغراء المال ... ماجده لا تحدقي بي هكذا ، فانا لست اروي لك اسطورة . . ولكنها قصة حياتي. . حياتي انا يا ماجده، وما كنت اصدقها عن نفسي لولا البرهان القوي. ولكن لأستمر في سرد الاسطورة الواقعية... ولم تعلم الام انها ولدت صبيا ، ولكنها تذكر أنها نشقت شيئا افقدها وعيها الى حين. ومرت السنون وكبرت انا، كبرت وانا احب هذين الوالدين حبا شديدا ... وذهبت الى باريس ، ورغم

عظمة المدينة وروعتها ، ورغم آيات الفن الخالدة ، فقد كنت دائما افكر بالبيت وبوالدي ، فينبعث في قلبي دفء وسعادة ، بل افكر بحياتي العائلية كما يفكر المرء بمنارة تهديه ويطمئن اليها .

ولما عدت كانت تزدحم في مخيلتي شتى المشاريع التي سأقوم بها في الحقل الموسيقي ، ويخفق قلبي بشتى الالحـــان التي كانت ترافقني دائما . ولكن بعد مرور اشهر معدودة ، اذا بي اتلقى رسالة خالية من التوقيع ، مكتوبا فيها ما رويته لك . . فاضطربت وطال صمتي ، واخذت اتذكر ببطء كيف ان معاملة والديّ لي كان بها كثير من الاحترام والادب واللطف ، فكأنما هما يعتبرانني غريبة عنهما .

وجمعت شجاعتي ، وفاتحتهما بالامر ، واطلعتهما على محتويات الرسالة ، ولكن والدي أمسك بيدي ، وقال لي .. انني يجب ان انسى هذه القصة لانه اعتبر دائما انني ابنتهما رغم كل شيء ، ولن تغير هذه الحقيقة شيئا من معاملتهما لي او شعورهما نحوي . ولما أبديت لهما رغبتي في التعرف الى مصدر هذا الاكتشاف ، اخبراني بأنهما اطلعا عليه قبلي من زمن بعيد ، اما هذه الرسالة الاخيرة فهي من حاسد تمام. ثم استمرت امي قائلة بأن أحد الآباء الروحيين زارهما في احد الايام ، وطلب منهما ان يحضرا معه الى بيت القابلة الفلانية التي هي في حالة نزاع ، ولم يطاوعهما ضميرهما ان يردا طلب الرئيس

الديني ، ورجاء شخص يحتضر . وما كان أشد دهشتها اذ قالت المحتضرة انها لا تريد ان تموت قبل ان تعترف بالخطأ الذي كان دائماً يثقل ضميرها ، ويسوّد الحياة في وجهها ... واعترفت لها بما رويته لك وطلبت منها ان يصفحا عنها .. وما ان أتمت امي قصتها حتى شعرت بشيء بارد ثقيل يقبض قلبي .. ومن ذلك اليوم شعرت اني وحيدة لا افكر بموقفي الا كمن يستجدي الأبوة .. أحس اني ضالة وغريبة عن البيت الذي آواني ، وان العطف والحنو اللذين نعمت بهما انما كنت قد اختلستها اختلاسا من اشخاص لو سارت الامور في مجراها الطبيعي لما كنت قد عرفتهم ... اما نداء الالحان فقد اخذ يخمد رويدا رويدا ، فقد تحطمت شخصيتي ، وانكسرت نفسي ، واصبح اللحن الجميل ، يمت الى حياة اخرى ، والى شخص آخر .. غير ذلك الذي انا عليه ... لأن غنائي والحاني انما كانت ازهاراً بهية من نفسي التي كانت تنضح بشرا واشراقا واملا؛ وأنى لنفسي ان تزهر ثانية يا ماجدة، بعد ان اقتلعت من جذورها ، وألقيت على قارعة الطريق .. واوشكت ان تصبح حطبا يابسا » .

وقطعت لمياء كلامها فجأة ، وقد كادت تخنقها العبرات ،

وحاولت جهدي ان اقول كلمة تناسب الموقف ، فلم اهتد

الا الى كلمات حائرة تشير الى انها يجب ألا تستسلم لهذا ، وتحاول ان تشعر بأن تغييرا ما لم يطرأ على حياتها . وان تستمر في السير بثبات وايمان ، فلها من فنها ينبوع من السعادة والايمان والامل والثقة .

وقالت لمياء إن توبيخي لها على اهمالها لفنها قد ترك في نفسها اثرا شديدا ، وانها ستجمع ما في نفسها من شجاعة في يوم من الايام لتواصل السير .

وقالت لي صديقتي التي تسرد قصة الفتاة الموهوبة .. « اما انا فاضطررت الى مفارقة لمياء حين رحلت مع عائلتي الى بيروت حيث قضينا سنتين هناك . وعدنا بعد ذلك الى العاصمة الفلسطينية ، وفي احد الايام بينما كنت اسير في احد الشوارع العامة لفتت نظري لوحة الاعلانات وقد كتب عليها بالخط العريض « لمياء تظهر للمرة الاولى ، لتعزف على البيانو ، مقطوعات من تأليفها الخاص بالاضافة الى الباستورال لبيتهوفن ، وفي الليل العميق ، لشوبان »

وطارت نفسي فرحا . وفي الموعد المحدد هرعت الى القاعة التي كانت غاصة بالمستمعين ، وكلهم متشوق الى سماع الفتاة النابغة ، وما ظهرت لمياء حتى قوبلت بالتصفيق الحاد ، ونظرت انا الى وجهها ، وكدت لا اعرفها ، فقدكان يشع بنور عجيب ،وجلست

الى البيانو، وما اسرع ما سيطر على نفسي عرفها الرائع فكأنما هي ساحرة لبقة تعرض امام المستمع سهولا خضراء ريانة ، تداعبها الانسام ، وغابات كثيفة داكنة تستقبل الفجر المتوهج ، وجبالا منفردة تعول فيها العواصف الصاخبة .. وقد تنتقل الى لحن كأنما اجواق الملائكة قد الهمتها اياه . كل هذا دون ميوعة في التعبير ، او استرسال في استغلال لحن من الالحان ...

وصفق الجمهور ما قدروا على التصفيق ، وكلهم معجب بنبوغ هذه الفتاة ، اما انا فلما وجدت ان الاقتراب من لمياء مشقة كبيرة في تلك الفترة ، أجلت مقابلتي لها الى موعد آخر .

• • • •

وفي احد الايام قالت لي لمياء « اظن اني احب ان احدثك عن ذلك الذي اعاد الى حياتي اشراقا وأملا » وقد تستغربين ان اقول لك ان السبب هو مرض والدي ، فقد هاجمته الحمى ، وجزعت انا لذلك كثيرا ، وكنت حريصة على خدمته ، والسهر عليه ، ولكني لم اكن اجرؤ على ذلك ، حتى جاء يوم قال لي فيه « انه جد حزين لشعوره انه فقدني الى الابد ، وهو الذي يحبني اكثر من كل اخوتي » ثم قطع كلامه ، ولما اشتدت عليه وطأة المرض اخذ يهذي ويقول بأني ابنته رغم كل شيء ، وانه سيموت تعسا

جدا لاني ابتعدت عنهم جميعا . وفي تلك الليلة ، تحققت ان الرباط الابوي انما هو نتيجة ممارسة الحب والعطف اكثر منه أي شيء آخر ، وان شعور هذين الوالدين بالخسارة والحرمان لم يكن باقل من شعوري . ومن ذلك اليوم لم اكن افارق حجرة والدي حتى جاء الطبيب يوماً وقال لي ان شفاءه كان نتيجة عنايتي الشديدة به كذا يقول الطبيب .. ولكنني افضل ان اقول ان مرض والدي كان سببا لشفائي انا .. فانا ابنة هذين الوالدين وهما ابواي رغم كل شيء ، وليس لي من حجة وبرهان الا المحبة والعطف والحنان الذي يربطنا معاً .

والآن تعالي معي لأعزف لك ما تشائين .

قصة الجيل

كان الشيخ ابراهيم حاد الطبع ، عصبي المزاج ، في نفسه صلف وكبرياء ، ثم هو متمسك باساليب الحياة القديمة ، ينظر الى الحياة الجديدة بريبة وشك ، ولكنه ككل الناس مضطر لأن يذعن لنظام الحياة الجديد ، وان كان مكرها على هذا الاذعان .

الحياة المثالية في شرعه هي الحياة القديمة : أن يحرث ويبذر كما كان يحرث ويبذر ؛ اما هذا « التراكتور » الذي ، وان كان لا يملكه ، الا انه ينغص حياته اذا ما رآه عند كبار الملاكين ؛ وهذه الطرق المعبّدة وهذه السيارات ، وازدهار الحياة الصناعية ، وهذه السرعة الخاطفة وازدحام الناس في المدن الناشئة ، كل هذا لا يعجبه ولا يطمئن اليه ، وان كان مضطرا لأن يرضخ له ، فكأنما هذه الحياة الجديدة وما تخلقه من ظروف ومستلزمات ، تسخر من الماضي المقدس ، الذي احبه بكل جوارحه .

ومما اثار سخطه تلك الحركة التي كان الشبان قد قاموا بها ، فقدموا عريضة للحكومة ، يطلبون فيها فتح مدرسة للبنات . والتفت عندها الى شيوخ القرية وقال لهم قول اليائس الغاضب «فسدت الامة ، وضاعت الرجال . البنات يتعلموا القراي؟ أقول ما انتو ملحقين عليهم مكاتيب عشق وغرام من اليوم وطالع » ولكن المدرسة تأسست بالرغم من ثورته واعتراضه ، وهو يرى بنات القرية يذهبن اليها كل صباح ، ويخيل اليه انهن يتحدينه ويسخرن منه . اما انتقامه من كل هذا فقد افرغه في ابنته فمنعها من الذهاب الى المدرسة ، وقد كانت دائماً تتوسل اليه بواسطة أمها ان يسمح لها بأن تلحق برفيقاتها الى المدرسة ، وكان جوابه في احد الايام « أسمعي يا ام الأمين ، انا ما في عندي بنات يروحوا على المدارس ، بذبحها على العتبة ، إن هي دخلت اعتاب المدرسة » وصمتت أم الامين ، ولم تعد لتجسر ان تذكر المدرسة في حضرة الشيخ .

. . . .

ولكنه اليوم وهو راكب في الباص ، يسرح الطرف في السهول الممتدة امامه ، كان يتذكر الماضي الجميل ، وما كان يتوجّه من الاحداث ، بشيء من الألم الصامت الذي ذهبت ثورته ، ولم

يبق منه الا ذكريات حائرة تتجاوب اصداؤها في نفسه اذا ما دعا اليها مؤثر ما كسفره في الباص مثلاً ، وهـذا المؤثر يذكره ان وجهته « في الزمان الاول » كانت تنتهي الى عكاء بدلا من حيفا ، فهي البلد ذات الشأن يومئذ ، وهي مركز المتصرف ، واليها تنتهي محاصيل القمح من المرج ، ومن السهول المحيطة بها . وذكر قوافل الجمال ، وهي محملة بالقمح الذهبي ، تتهادى نحو بلد الجزار فيستقبلها السور العظيم ، الذي كثيرا ما سمع ان بانيه كان يعاقب المذنبين بان يأمر بالاستمرار ببناء السور على جسم آدمي حي ، ولكنه كان ينسى هول الحادثة ، اذا ما دخل المدينة فاستقبله المسجد الفخم .. وأي طمأنينة كانت تسري الى نفسه اذا ما دخل المسجد ، واستعد للصلاة ، ولفحته تلك الانسام الباردة اللطيفة

كأنها واردة من أنسام الجنة ، واشترك هو مع المصلين ،واذا بقوة هائلة تستولي على نفسه ، بها شذى عميق حار ، لعله من انسام الصحراء ، وجهاد الامة ، ولكنه لا يدري انه تاريخ أمة ، وعقيدة أمة ، تكمن في حياة الافراد والجماعات ، دون ان يدروا هم بها ولكن الذي يحسه هو ، هذا الشيء العميق الهائل الممتدة جذوره في حياته ، وان كان لا يدري اسبابه . وكثيرا ما نظر الى القباب العالية ، والى الآيات القرآنية التي تزين جدران المسجد ، والى

مجالس النسوة التي تحجبها هـذه النوافذ ذات القضبان من الخشب المشبك ، فيحس بشيء من الزهو والفخر مصدره انه ينتمي الى كل هـذا .... ، وانه جزء منه .

ولكنه اذا ما خرج وسمع ضجيج الباعة ، واحاديث الفلاحين شعر بالجوع وألحّت في نفسه رغبة لأن يأكل سمكا مقلياً على شاطىء البحر ، فهذه هي الوليمة الكبرى التي لا تعدلها أية وليمة . والبحر هو مجال خياله ، فهو لا يرى البحر الا اذا جاء ليبيع القمح في عكاء ، وهذا البحر وان كان يجتذب به اليه بقوة وعنف الا انه لا يطمئن اليه ، فهو يحس انه في منطقة غريبة مسحورة ، ليست شبيهة بمروج القمح الذهبية ، التي ألفها واحبها .. ثم هو لن يتصور وجود بلدان ومدن على ضفاف هذا البحر ، رغم انه سمع ذلك من اكثر من مصدر واحد ، حتى من الصبية الذين يتصيدون في قواربهم السريعة الخفيفة .

وسمع قرعاً على قضيب حديد « مالك يا شيخ »، ألعلك لا تسمع ؟ اين التذكرة ؟ وقد تكلف الشيخ ابراهيم مجهودا كبيرا ليتمكن من العودة الى محيطه ، ليجد نفسه فى باص مزدحم ، اكثر راكبيه من سكان المدن ، وامامه فتى اسمر الوجه ، نحيل القامة ، يحمل في يده المقص الذي يثقب به التذاكر .

وخيل للشيخ ان ركاب الباص جميعاً قد لحظوا ذهوله . بل قد اطلعوا على ذكرياته ؛ فثارت عصبيته ، وكأنما هو يريد ان يدفع هذه الاهانة ، فلم يجد افضل من ان يهاجم الفتى قائلاً « ولماذا تصيح في وجهي هكذا ، أتظن الناس عبيداً لأمثالك ؟ » واجاب مراقب التذاكر « احنا مشغولين يا شيخ .. هات التذكرة » .

ونظر الشيخ الى مراقب التذاكر ، واحس انه يريد ان يشتبك مع الفتى في خصام طويل ولكنه اكتفى بأن يقول « أما زمان .... وأما سعاده » وببطء متعمد مد يده الى عبه ، واخرج التـــذكرة ، فانتزعهـا الفتى بسرعة وهو يقول « انظر . ها هو الباص الآخر قد قدم ... بتحسبنا قاعدين نلقط زيتون »

وقفز الفتى من الباص بسرعـــة ، ليستقبل الباص الآخر ، ويؤدّي وظيفته هناك ، وربما ليتحدث عن الشيخ الشارد ، للسائق الآخر .

....

ولـكن عبثا حاول الشيخ ان يعود الى ذكرياته الأولى ، وعبثا حاول ان يطمئن الى الماضي الجميل . قريـته الوداعة ... اكوام القمح الذهبية ... واكوام الزيتون الزبرجدية .. ركوب الخيل للسباق في الأعراس والمناسبات .. سفره الممتع الى عكاء

وحداء صحبه الشجي في الطريق .. كل هـذه كانت صورا حائرة تحول دون وضوحها ودون استمرارها حركة المرور المتواصلة الى حيفا ... مرور السيارات الذاهبة اليها والآئبة منهـا .. سيارات الجيش ... سيارات شحن تجر وراءها قضبانا حديدية تحدث صوتا مزعجاً على طريق الاسفلت ، واخرى تحمل اكياسا من الطحين والبرتقال والاخشاب والبراميل ... وباصات الركوب ... وسيارات الأجرة ... سيارات خصوصية يقودها رجال انيقون والى جانبهم نساء على وجوههن ابيض واحمر ، واكثرهن يضعن نظارات سوداء على عيونهن .

ومن وراء كل هـذا سهول المرج الذي يصل الى الساحل ويطل هو من بين كل هـذا ليشاهـد الارض ، الارض التي احبها دائما كائنا من كان سيدها ... وأيا كان موقعها ويقول في نفسه وهو يحدق فيها ، كما يحدق الفنان في الغادة الحسناء»: الارض كالحناء ... رخصة طرية ممزوجة بحبات الندى ، تنبت قمحا ذهبيا وكرما قطوفه دانية » .

واختفت الارض ، ورأى حوله ما يراه المسافر وهو متجه الى حيفا من معامل وبنايات وورشات. حيفا... اسم آخر يثير فيه شيئا من الازدراء الممزوج بالغضب ، كلمة اخرى هو مضطر ان يذعن

لنفوذها وضرورتها. وماذا كانت هذه المدينة المتغطرسة يوم كانت عكاء صاحبة الشأن... قرية ضئيلة الشأن ملقاة على شاطىء البحر. وتذكر بمرارة حين عرض عليه احد تجار القمح اربع دونمات من الارض على سفح الكرمل سداداً لدين لم يستطع ان يدفعه، فرفضها واصر على الاربعين مجيدي.

واشرف الباص على حيفا، فبدت له ابراج البترول كأنها جبابرة هائلة تسود على ما حولها، ومن ورائها المدينة التي تراكمت بيوتها وازدحمت بعضها فوق بعض، وسمع صفير القطار عاتياً متمردا، ورأى العربات تحمل الفحم على بعض الخطوط المحلية والى يساره انفاق في الارض، معامل للاسمنت والتنك، وأشياء اخرى.

وطارت من رأسه الذكريات، وهو يريد ان يتدبر ما حوله سيما ومعه اكياس من القمح. ووقف الباص وانزل حمله من القمح وسار به الى سوق الحبوب.

. . . .

وفيما هو سائر نحو المطعم المتواضع اذا به يسمع صوتا « مرحبا بالشيخ ابراهيم ... كيف حالك » ، والتفت، ونظر طويلاً.. من الرجل بالبدلة الافرنجية، والساعة الذهبية المدلاة من جيبه

الداخلي

« انت لا تـــذكرني يا شيخ ابراهيم »

« لا بلا صغره ... »

« عميلك أيام زمان ... »

ونظر مليا ، وتذكر ببطء .. تذكر العميل الفقير الحال .. وتذكر الاربعة الدونمات ، والاربعين مجيدية .

وأصر « العميل سابقا » على ان يأخـــذه الى بيته فهو يريد ان يريه ما وصل اليه من جاه . أما الشيخ ابراهيم ، فقد دفعه حب استطلاعه ليـــذهب معه ، ودخل معه الى بيت فخم ، والى ردهة واسعة ، مفروشة بفاخر الاثاث ، حيث جلس على مقعد وثير . وبعد لحظات دخلت زوجة« العميل سابقا». كانت ترتدي ثوبا من الحرير الازرق ، وكان شعرها المصبوغ مصففا بطريـــقة عجيبة ، لا يـذكر انه رآها على احد .. فهي شبيهة بأصابع بعضها فوق بعض ، وكان هو مبهوتا يهـــاب ان يدوس الارض اللامعة والسجاد الفاخر ، وزاد ارتباكه عند دخول زوجة « العميل سابقا»التي كانت تحادثهفيحول هو وجهه ، دون ان يدري الى اين. وسمع خطوات سريعة على السلالم . وفتح الباب، ودخلت فتيات ثلاث وصبي صغير... بونجور بابا،بونجور ماما،بونجور ...وتراجعت

الفتيات وكأنهن شعرن ان كلمة « مسيو » نابية في هـــذا الموقف .

وقال المضيف « هؤلاء بنـــاتي: لوريت ، وانطوانيت ، وجورجيت . سلمن على عمكن الشيخ ابراهيم . انه صديق قديم . وهذا ابني الصغير جان »

ودخل الجميع غرفة الطعام . مائدة من الخشب الثمين ، عليها غطاء ابيض كالثلج ، صحاف مزخرفة ، اكواب لامعة ، في وسط المائدة زهرية بها ورود حمراء .

أما المعضلة التي لا تقهر فكانت هـــذه الشوك والسكاكين والملاعق والصحون الرئيسية والاضافية . ولفت نظره الاظفار الطويلة القرمزية اللون التي كانت تطل من فوق شوكة الابنة الكبرى الرشيقة . وقال في نفسه ما هـذا .. — حناء ... انه لا يعرف خضابا بهذا اللون ، ومجه ذوقه ، فهو يذكره باظفار حيوان ملطخ بالدماء .

وعاف الاكل لأنه لا يتدبر معالجته بمثل هـذه الشوكة . واخيرا انتهت مشكلة الطعام، وشرب القهوة .. وشيعه العميل الى الباب . وسار وهو مبهوت .. لقد أحس انه في احد القصور التي كان ابو سالم يسرد وصفها في ليالي الشتاء . وكادت تتغير وجهة نظره ،

وشعر بأن في هذه الحياة الجديدة جمالا وفتنة ، راحة ورفاهاً . هـــذا البيت الجميل ، وهذه السجاجيد والأسرّة والمقـــاعد ، وألوان الطعام .. وعض على شفته حتى كاد يدميها عندما تذكـر الاربعين مجيدية ، والاربعة الدونمات. ولما استفاق لنفسه كان قد ضل الطريق .. وسأل المارة ، واخيرا اهتدى ، ووصل الى موقف البصات ، ولكنه لم ير احـــدا ،ولم ير باصات ، واخيرا عرف السبب... منع التجول على السيارات ، وحار في امـره .. وقصد الفندق المتواضع الوحيد الذي يعرفـه . فاذا به غاص بامثاله من الذين انقطعت عليهم طريق العودة .

وجاء الليل ، وبعد تردد شديد ، سار في خجل اشد ، الى بيت صاحبه ، وعاد فتردد عند الباب طويلًا فقد سمع حركة غريبة ، وموسيقى سريعة غريبة الوقع . واخيرا قرع الباب ، ولما فتح الخادم الباب اذا بعيون عديدة تحدق به ، واذا بالقاعة قد نصبت فيهـــا طاولات مستديرة ، واذا برجال ونساء ، واذا بأقداح وزجاجات ... واذا بأوراق اللعب واكوام من الدراهم تنتقل بسرعة.. ثم قهقه الجميع ضاحكين .. من منظره الغريب الشاذ.. أما صديقه القديم ، الذي كان مشغولا بكسبه او خسارته فقد طال علية الامد ليرى الفلاح العائد ، ولكنه لما رآه توجه نحوه وهو يكبت غيظه للمصادفة السيئة . تفضل يا أبا الأمين ... أتأمر

شيئاً ؟ .

وعاد الفلاح يحدق فيما حوله ، وخجل ان يرى نفسه بين هؤلاء النساء اللواتي يرتدين هذه الثياب الشفافة الرقيقة ، وحار في امره . انه لن يطلب النوم في هذا المكان وعند هؤلاء القوم . فلقد شعر للمرة الاولى انه غريب بينهم ، وليس هنالك من صلة تربطه بهم . وبعد لحظات أجاب : « لقد انقطعت بي السبيل ، وأريدك ان تدلني على فندق أقضي فيه الليلة » .

وأجاب صاحب البيت : » كنا نوّد ان تقضي الليلة عندنا ولا . . » وقطع الشيخ ابراهيم عليه كلامه بسرعة « لا ، انا لا استطيع ان أمكث هنا » .

وأرسل صاحب البيت خادمه مع الشيخ ليدله على الفندق . وعند الباب تركه الخادم وعاد . ولما سأل هو عن اجرة نومه وجد ان الاجر يفوق ما يملكه في جيبه ، فقد كان فندقاً فخما لا يقصده الا المثرون .

وصحت عزيمته على ان يعود سيرا على قدميه الى قريته .. واخذ يمشي بسرعة ونشاط في بادىء الامر . . . وخرج من المدينة ، وكانت افكاره تعمل بجد ونشاط ، وكثيرا ما كان يحدق في الليل فيرى الاقداح ، واوراق الشدّة ، والنساء ذوات الاذرع المكشوفة

وهن يعبثن باكوام الدراهم ، فيشعر بشيء من الاشمئزاز ... وإذ ذاك تناديه أطياف قديمة وادعة .. الابــل وهي تتهادى ببطء محملة بالقمح الاصفر ، وحداء السائق الحنون في الليل الفضي وتأمل النجوم .. انها لا تزال ساهرة باسمة كما كانت في ذلــك العهد الطيب .

وخارت قواه . فقصد شجرة واستلقى بظلهـــا ... وغلبه النعاس فنام .

وعندما انبلج الصبح عاود سيره .. ورأى باصاً متوجهاً نحو قريته ، فركب فيه ، ومـا هي الا دقائق حتى لاحت له قريته الحبيبة ، وخف اليها بشوق وسرعة ، وهو ينظر اليها كأنه غاب عنها العمر كله .. وأخـذ يستنشق رائحة اشجار الزيتون الغبراء بلهفة وحنين ، بل انه تناول حفنة من التراب وأخذ يتأمل ذراتها ، ثم استنشق رائحتها طويلاً. لقدشعر انها تحتضن حياة كاملة، بل اجيالا عديدة. ثم عاد فألقاها ببطء وحب واجلال . انها شيء مقدس.

عندما عاد النيروز

اذا مـــا ولى الشتاء ، ولاحت اول تباشير الربيع ، جرى الدم في العروق حاراً ، وتألق الناس بشراً وفرحاً ؛ فمقدم الربيع في كل زمان ومكان لهو عيد للناس اجمعين . ولكن سكان بلدة (س) يستقبلون الربيع بحماس واقبال يفوق الوصف ، وخاصة في الايام الاخيرة من آذار واوائل نيسان ، وهم يطلقون على هذه الايام اسم النـــيروز ، ويقرنونه بتفتيح اللوز على الاخص . وكل من عرف النيروز في بلدة (س) لا يستغرب ان يجد سكانها كالسكارى ، أو كمن مسهم سحر . فتغريـــد العصافير في الصباح الباكر ، وتألق زهر اللوز ، والسماء التي تغطيها غلالة رقيقة من السحاب يسميه سكان البلد « عبوقاً » للشجر ، والجبال المكتسية بالخضرة الفاتحة ، والتلال الزرقاء التي تكتنفها كأنها سور من الزرقة ، كل هـذا يشعرهم انهم في فردوس .

وانا لا امعن في هذا الوصف الا لاني أراه عاملاً أساسياً في

حياة سميحة – الفتاة التي أنوي سرد حياتها . ونحن اولاد الحياة وأبناء الطبيعة ليس من المستغرب ان تلعب الطبيعة دوراً اساسياً في حياتنا ، وهي في الواقع تلعب هذا الدور دائماً ، ولكننا قلّ ان نفطن اليه ، وذلك لاننا نقيس حياتنا بالكسب او الخسارة الماديين ، وقلما نقيسها بما يعرض لنا من أجواء ومشاعر واحساسات .

وليست سميحة بالفتاة التي تحلل مثل هذا القول وتفقهه ، فهي ساذجة بادق ما في هذه الكلمة من معنى ، لم تعرف من الحياة الا لونا بسيطاً متواضعاً ، وهي قانعة به ، مطمئنة اليه . فقد شبت في بلد متواضع لا تصله المدنية الا برفق وتؤدة ، ونشأت في بيت متواضع اقرب الى الفقر منه الى الغنى .

ولسميحة ثلاثة اخوة ؛ اما الاثنان اللذان يكبرانها فهما يشتغلان مع رب العائلة في حيفا ، حيث يشتغل الاب والولد الاكبر نجارين في ورشة سكة الحديد ، ويشتغل الابن الثاني في شركة تكرير الزيت .

واذا ما ظهرت ذرات النور في الافق البعيد ، نهض الوالد وولداه الاكبران ، ونهضت كذلك الام تعد لهم الزاد ، بينما يلبسون ثيابهم ، وبعد دقائق (فالعمال لا يقضون وقتاً طويلا

في لبس ثيابهم) يهرع الرجال الثلاثة ليلحقوا بباص العمال ، وتقف الام في الباب تودعهم بنظراتها ، والصبح يتوهج بالوان الحمرة العميقة ، وتتمتم لنفسها (يا رب احفظ لكل عين رجاءها) ثم تسير الى الداخل ، وما ان تمر فترة اخرى من الزمن حتى يسمع هدير باصات العمال في طريقها الى حيفا ، فتعيد الام دعاءها وتطل من النافذة تشيع الباصات في طريقها الى حيفا .

وفي هذه الاثناء تكون سميحة واخوها الصغير بسّام قد استيقظا ، فيتناول ثلاثتهم طعام الافطار ، ويذهب بسّام الى المدرسة وتنصرف الام وابنتها الى اعمال المنزل .

وكان بيتهم في حيّ منفرد ساكن من البلدة الساكنة ، وقد يخيّل للقارىء ان حياة سميحة يسيطر عليها الخمول والجمود ، حتى يعرف ان بيتهم قريب من بيت ابن عمها ، بل لا يفصل بين البيتين الا بستان . بستان قد زرعت فيه اشجار اللوز والمشمش والخوخ من عهد بعيد ، وكذلك عرائش العنب ، واذا ما جاء النيروز اكتست هذه الاشجار بنوارها الابيض والوردي ، وزغردت الاطيار في الصباح الباكر ، وكأنها تدعو سكان البيتين للهو المرح في ارجاء البستان المزدهي بحلة الربيع .

ابن عمها والبستان . قوتان عظيمتان تسيران حياة سميحة ،

وقد سيرتا حياتها من ايام الطفولة ، فهذه الطفولة يلخصها اتصال دائم مع ابن عمها الذي يكبرها بخمس سنوات .

لقد عاشوا جميعاً هي واخوتها واولاد عمها وبنات عمها سويا ، وفي البستان المشترك ، يلعبون ويختصمون ثم يعودون فيتراضون ويتفقون .

وتبلغ هي سن الرابعة عشرة فاذا بها لا تقرب ابن عمها الا ويتدفق دم حار الى وجهها الصغير ، وترتبك حركاتها ، ويصبح قلبها كطائر يصفق بجناحيه . وحارت في امرها ، فما هذا الذي يتملكها اذا ما اتصلت بابن عمها ، وهي التي عاشت معه العمر كله . وخالت السبب ضعفاً في جسمها ، وعزمت ان تقاوم هذا الضعف اذا ما اجتمعت به ثانية ، وراعها ان تفشل في المحاولة الثانية ، بل ان تجد ان ارتباكها قد تضاعف وازداد .. ووجدت الحل الوحيد لمشكلتها هذه ان تتحاشاه ، فهي لا تطيق ان تصبح موضع مراقبة اهلها واخوتها واولاد عمها .

واذا بها تنتظر ساعات الليل التي تأوي فيها الى فراشها ، لتستقدم طيفه ، وتبثه كل ما في نفسها من شكوى وحنين الى ان يتسرب النوم الى اجفانها ، فتتولى احلامها مناجاة هذا الطيف ومرافقته . ويجيء الصباح فتستيقظ متلهفة لرؤيته ، ولكنها ما

تكاد تشرع في تحقيق أمنيتها هذه حتى تحس بنفسها الضعف وخفقان القلب ؛ فترتد مخذولة عن محاولتها .

اما هو فقد احبها قبل ان تحبه ؛ احبها قبل ان تعرف هي الحب او تستطيعه ، وكان يروقه ان يتأمل شعرها الاسود المتطاير يحيط بوجهها الصغير ، بينما هي تعدو وتلعب في البستان . وكان من دواعي سروره ان تختصم مع احد اخوتها او اخوته ثم تجيء اليه تحتكم شاكية باكية تدافع عن قضيتها بغضب وحماس ، وهي لا تفقه انه منصرف عن سماع الشكوى الى مراقبة حركاتها ونظراتها ، ثم يهدىء من ثورتها ويعدها بأن يرد لها حقها السليب .

وكثيراً ما كانوا جميعاً يقصدون الجبال ، فالبلد الذي يسكنونه مشهور بجباله ، جباله التي تحيط به كالسوار ، وكان عندئذٍ يختلق الاسباب ليبقيا وحيدين ، وهو يذكر واحدة من هذه الاسباب عندما تظاهر أن رجله قد تعثرت بحجر ، وانه عاجز عن مواصلة السير واللحاق باخوتها واخوته ، ثم طلب منها ان تجلس معه حتى يعود بقية الاخوة . وجلست هي مكرهـــة ، فقمة الجبل التي يتسابق نحوها الاخوة تناديها ، فثمت سعادة عميقة تمتلكها اذا ما وقفت في القمة ، واشرفت على المدينة والمرج العظيم .

ولكنها كبتت ما في نفسها ، وجلست اليه شاردة تفكر بقمة

الجبل ثم تقفز من مكان الى مكان تلتقط ما يقع عليه نظرها من أزهار عصا الراعي والشقيق .

اما هو فقد فاضت نفسه فرحاً وهو يجدها وحيدة بالقرب منه، وهواء الجبال يلفح خديها ويعابث شعرها ، ولكن ساءه انها لا تدرك ما في نفسه . ثم قال لها إنه يحبها ، فلم يَبدُ في وجهها ان هذه الكلمة فسرت لها ما في نفسه .

كان هذا والطفولة لا تزال تجذبها نحوها ، وراقبها وهي تتخلص من سني الطفولة ، راقبها وهي كزهرة يتفتق عنها كمها ، فاذا بها تحجم وتنطوي على نفسها ، واذا بها لا تتصل به ، ولا تسعى اليه ، وانما تهرب منه ، وتتحايد لقياه ، واهم من كل هذا انها لم تعد الفتاة المرحة الضاحكة التي عرفها .

وحاول ان يحطم الجدار الذي نصبته ، فيقبل نحوها ، فتجمد مكانها فجأة ، ويبدو في عينيها قلق وحيرة تثير شفقته ، وتطأطىء رأسها ، ويخالها تترنح لتهوي على الارض فيرتد مشفقاً عليها .

وحار في امره وامرها ، فهو إن غامر ، وجلس اليها اخذت تنظر اليه كانها خائفة منه ، بل كأن عينيها تقولان له : ان كنت تشفق علي فلا تحملني ما لا طاقة لي عليه .

فيرتد كسير الخاطر مبلبل النفس ، ثم يستخفه الشوق اليها ، فلا يكون مصيره في المرة الاخيرة بافضل مما سبق من مرات .

وعزم يوما ان يفاتحها بالامر مهما كان الثمن .

وكان ذلك اليوم من ايام النيروز ، وكان البستان في عرس ، قد زينه نوار الشجر ، وعطره عبير الزهر ، وتناغى فيه الطير ، وتداعبت فيه اشعة الشمس . وكانت هي جالسة على جذع شجرة منحن ، والوقت ضحى ، وكانت تحسب انه ذهب لعمله فهو سائق سيارة يسافر في الصباح الباكر ؛ ولكنه في الوقت نفسه كان يسير نحوها دون ان تراه . والتفتت فجأة ، فما ان رأته يسير نحوها حتى خفق قلبها بطريقة افزعتها ، وشحب وجهها ، وكادت تتهاوى على الارض ، فخف اليها ، وامسك بيديها يثبتها في مكانها ، وما ان لمست يداها يديه حتى ازداد شحوب وجهها وغدت كأنها تمثال من الشمع ، تنظر اليه بعينين متوسلتين فزعتين .

— « سميحة . ماذا حدث ؟ »

وافترقت شفتاها لتجيب ، ولكنها عادت فاطبقتها عن حصر وعيّ ، وبقيت تنظر اليه مستغيثة مستنجدة ، فراعه ضعف حالها ونحول جسمها وحيرة عينيها .

« سميحة دعينا نتحدث قليلاً . ماذا حدث لك ؟ ولماذا تغيرت ؟ »

وحاولت ان تفسر له ما يطرأ عليها ، فلم توفق الى ذلك واجابت – وكانت صادقة في اجابتها – « لست ادري »

« لعلك لا تستطيعين مقاومة نفورك مّني »

فصعقت لهذا التفسير ونظرت اليه باضطراب « آه ... ليس هذا . صدقني اني اجهل ما يحدث لي .. انه ليس بيدي »

« ما هو الذي ليس بيدك » ؟

« مقاومة هذا الاضطراب »

« وما دافعه ، » ؟

« لست ادري »

وشعر انه يحبها اكثر مما كان يحسب انه بامكانه ان يحبها ، وتملكته رغبة شديدة ليحتويها بين ذراعيه ، وكان يعلم ان هذا سيكون مفاجأة فوق طاقتها ، ولكن انانيته تغلبت عليه وما هي الا لحظة حتى كان يحتضنها بين ذراعيه القويتين : « سميحة انا احبك ،وانك لقاسية جدا في معاملتك لي ..لن ادعك تهربين مرة اخرى » .

اما هي فراعها ما حدث ، وقد كان في هذه المفاجأة فيض

من المشاعر والاحساسات التي ملكت عليها نفسها ، فكأنما بحر كبير يطغي عليها ، ويحتويها في جوفه ، وهي سعيدة أن تسلم نفسها له ، ولكنها إن نسيت كل شيء ، وشردت عن كل شيء ، الا ان شيئاً واحدا لم تستطع نسيانه ، وهو دقات قلبها العالية السريعة . لقد كانت تسمعها ترن في اذنيها وتتمنى لو تسكت او تخبو قليلاً ، واذا بها تتشبث بابن عمها لينقذها من دقات قلبها .

« سميحة .. لا تهربي مني . عديني الا تفعلي ذلك في المستقبل»

« بودي لو استطيع »

« وماذا يمنعك من ذلك » ؟

« لست ادري » .

ونام تلك الليلة كالمحموم ، لا يفكر الا بتلك اللحظات السعيدة التي كانت فيها سميحة بين يديه .

وفي الصباح تأخر عن موعد سفره علّه يراها تخرج من الباب او تطل من النافـذة ، ولكن محاولته ذهبت عبثا. وفي عصر ذلك اليوم اقتحم بيت عمه مدعيا بان حاجة ملحة عرضت له ، وشعر بباب غرفتها وهو يفتح قليلاً ثم رآه وهو يغلق . وبقي هو يحدق بالباب المغلق كأنما هي الجنة منعت عنه ، وود لو انه اقتحم الباب واخرجها من مخبئها ، ولكنه عاد فاشلاً .

ونام تلك الليلة غاضبا حانقا ، وما إن اشرق اول شعاع من النور ، حتى كان يقود سيارته نحو الجنوب ، وقد امتلأت بالركاب . كان شارداً يحس ان جمال الوجود من حوله يلسعه ويؤذيه ، فهو يرهف حسه ويشحذ عاطفته ، ويلهب فؤاده ، ويضاعف شعوره بالحاجة اليها .

لقد كان يمر عن المروج الخضراء ، والقرى الوادعة ، ويرى الجبال البعيدة التي تتوجت قممها بالالوان النارية والبنفسجية ، فيحس انها جنة رائعة ، ولكنها ساكنة موحشة باردة ، وعاد يستذكر حادث البستان ، وكيف اغرق يديه في شعرها الاسود ، .. آه .. ان لمسة ذلك الشعر الحريري لتثير في قلبه حرارة وشوقاً ، ... ثم صوتها الخافت الضعيف ... وثارت ثائرته .. لانها اختفت كطيف جميل ، ولم يرها بعد ذلك .

لعلها نفرت من تصرفه . وسمع صوتا يقول له : « على مهلك ايها السائق ، فقد كدت تدهورنا » .

وفطن الى نفسه ، فاذا به يقود سيارته بأقصى سرعة .. وابطأ في السير . لماذا لم يسأل امها عنها ؟ لماذا لم يقض السهرة في بيت عمه فقد تكون خرجت من مخبئها ورآها ، وأطفأ هذا الظمأ الشديد الذي يزداد لهيبه في قلبه في كل ساعة .

ثم استولت عليه سعادة لطيفة ، فقد تخيلها زوجته المقبلة ، يجلس معها الى مائدة واحدة ، ويعود من سفره فيجدها في انتظاره .. زوجته المقبلة .. ولم لا .. بل أهنأ عيشه ، وتصفو حياته ، ان لم تكن هي شريكة حياته ؟ لماذا لا تصبح زوجته ؟ ، آه .. عليه ان يطلب يدها ، وكأن هذا اكتشاف جديد يقف عليه للمرة الاولى ، فهو لم يخطر بباله ان عليه ان يمر بهذه المراسيم جميعاً ، فهي في خياله زوجته وشريكة حياته ، وهذا امر بديهي ، لا يحتاج الى جدل او برهان ، بل هو امر كالحقائق الكبرى في الحياة الشبيهة بدوران الارض ، وشروق الشمس كل صباح .

ولكنه اليوم فقط فطن ان عليه ان يعرف الناس من حوله الى رغبته هذه .

متى تنتهي هـذه الرحلة ، ويعود الى البيت ، ليذكر لوالده رغبته هذه ، وعندها ستصبح خطيبته تحمل في اصبعها قيدا يعلن انها له ، وله فقط ، ولن تختبىء منه بعد ذلك ، ولن تفر وتختفي كما تختفي الأطياف الرقيقة .

وعند عودته ابدى لوالده رغبته في الزواج من ابنة عمـه ، فوافقه على ذلك ، ونقل الوالد بدوره هذه الرغبة الى اخيه ، فاطمأن اليها . وجاء كل هـذا بسهولة لم يكن يتوقعها . اليست

هي ابنة عمه بعد كل شيء ؟ ، ومن اولى منه بها ؟» .

وفي يوم الاحد كان سكان البيتين في هرج ومرج ، وكان هو ينتظرها بلهفة وخرجت مع اخيها ، مطأطئة الرأس ، متوردة الوجه ، لامعة الشعر ، وعندما التقت نظراتهما كان في عينيها استغاثة . لقد كان حادث الخطبة امرا عاديا لجميع الحاضرين ، وقد شغلوا بمراقبة ثوبها المصنوع من «التفتة» الزرقاء ، وحليها التي تقدم بها العريس ، ومراسيم الخطبه ، ولكن الحادث بالنسبة اليهما كان حدثا مقدسا ، اغرق هو في تفكير عميق من جرائه ، واستولى عليها هي اضطراب واهتمام ، وكانا اذا ما التقت نظراتهما يشعران انهما في مستوى واحد من عمق التفكير وعمق العاطفة. لا .. لا .. لن يقول لها شيئاً في هذا الحفل الماجن ، فالوالدون ينظرون اليهما كطفلين ساذجين ،قد شبا فجأة ، وكأن الزمن سفينة مسرعة نقلتهما فجأة من ابراهيم وسميحة الطفلين الى ابراهيم وسميحة العروسين . اما الاخوة والاخوات فقد اخذوا يسخرون منهما هذه السخرية البريئة ، التي هي منفذ لآمالهم هم — يوم يصبحون عرائس وعرساناً .

وبشعور غريزي فهمت سميحة وابراهيم ما يدور بخلد الوالدين والاخوة والاخوات ، فتداركا الامر ، ولم تفلت منهما اي

إشارة تفسر ما هما عليه من عمق الشعور والسعادة .

وبينما كان يقود سيارته في اليوم الثاني احس انه ملك متربع على عرشه ، بل لقد تحققت اقصى امانيه ، ونظر حوله فاذا المرج مزهو بخضرته ، واذا الجبال تتألق قممها ، واذا الهواء يداعب وجهه كأنه يهنئه على سعادته التي حصل عليها . وعاد مبكرا فألفاها في البستان وهرع نحوها .

« سميحة » وامسك بيدها ، ونظر في عينيها طويلا «سميحة ... اتحبينني »

« نعم يا ابراهيم . احبك كثيرا جدا » والقى شفتيه على يدها الصغيرة .

« الا تريدين ان تهربي مني الآن »

« دعنا ننسى حادث الهرب »

« لا اريد ان انساه فهو إن تكرر فله عقاب شديد »

« وما هو، »

« لن اخبرك ، فتعريف العقاب يفقد كثيرا من تأثيره »

« انا لا اخاف من عقوباتك »

« لأنك لم تخبريها بعد »

« سترى انها ستكون غير مجدية »

« حتى ولو كانت قبلاً حارة » فتراجعت الى الوراء .

إذن فلن يسري عليّ مثل هـذا العقاب »

« ولماذا »

« لاني لن اهرب »

« ولكن المرء بامكانه ان يكون ظالماً فيعاقب بدون ذنب او جرم اقترف »

« لا اعهد الظلم من شيمك »

« عقاب مثل هـذا يغري بالظلم ، » وضمّها اليه بذراعيه ، فعادت تتعلق به ، وتنظر في عينيه الحادتين ، ووجهه المتدفق بحرارة الشباب وعنفوانه .

وكانا يجدان الحياة جميلة مشرقة بهية تنبض بالصبا والجمال والامل المنشود ، ولو استبدلت الجنة بكل هذا لآثرا حياتهما التي تنبض بالحب والانتظار ، على الجنة وما فيها من بهاء وخلود .

. . . .

وافاق سكان بلدة (س) في صباح احد الايام فاذا وجوه غريبة في بلدهم ، و كلها وجوه فتيات ، بل كلها وجوه بيضاء تتألق بحمرة شميقة ويكللها شعر اشقر كثيف .

لقد اختارت السلطات المسؤولة هـــذا البلد ملجأ للفتيات

البولونيات اللواتي كن قد تشتتن في روسيا وايران وجيء بهن عن طريق العراق الى فلسطين في فترة الحرب العالمية الثانية .

وكان قدوم الفتيات الشقراوات حدثا في البـــلد الساكن المتواضع ، فطارت قلوب الشبان وعقولهم ، وانزوت الفتيات قابعات في دورهن ، وقـــد حيل بينهن وبين كل استلطاف ومؤانسة قد تعرض بينهن وبين شبان البلد ، واضمرت فتيات البلد لهؤلاء المهاجرات الغازيات حقدا وكراهية لا مزيد عليها فقد كن مطلقات الحرية بينما حجزت التقاليد حرية بنات البلد ، وكن يتبخترن في شوارع المدينة ومنتزهاتها جماعات ووحدانا ، يحوم حولهن هذا الشباب الظامىء المتعطش الى المغازلة ومغامرات الحب ، بينما تنظر بنات البلد من ثقوب النوافذ والابواب الى كل هذا ثم تنطوي كل منهن متحسرة ملتاعة على حبيب سلبته منها احدى هؤلاء الفتيات ، ولم تكن شكوى الآباء والامهات بأقل من شكوى الفتيات ، فقد عق الاولاد آباءهم ، ولم يعد يسد حاجاتهم ما يتقاضونه من مرتب ، واخذ الشبان يتنافسون في ايهم يبذل في سبيل الحسان الشقراوات مالا اكثر ، وايهم يقيم لهن ابهى الحفلات الساهرة ويقدم اثمن الهدايا .

ونشطت الرحلات الى شاطىء البحر حيث يسبح الفتيان مع

الغانيات الشقراوات ، وحيث تقام حفلات الرقص في ضوء القمر كل هـذا وسكان البلد من غير الشبان واجمون يتحرقون غيظا من طيش الشباب ، وبراعة الفتيات في استنزاف مال الشبان وتعبهم.

اما سميحة فلم تبال بكل هذا ، فهي مشغولة بحبها ، مطمئنة اليه ، فهو حب يتجدد مع كل فجر ، ويتضاعف مع كل اصيل . لقد وهبت نفسها لهذا الحب ، الذي يجعل حياتها كأنها سلسلة من حـــلم جميل يجعلها ترى الحياة وردا وذهبا ، لقد كان هذا الحب يلون حياتها ويضفي عليها احساسات عميقة حارة كشذى الازهار

ومرت الاشهر وهي تجلس الساعات الطوال تعد ثياب العرس وتفتن في تطريزها لاهية عن قوى عنيفة اخذت تمد جذورها نحو المحبوب وتنتزعه منها ، بل وتعميه عنها ، فاذا هو مكتنف من كل ناحية بفروع تلتف حوله وتغريه ، وتبعده عنها ، لقد كانت هـــذه القوى تثير غريزته واهواءه فتوقظ ذاك الوحش الكامن في حياة كل انسان .

لقد كانت تجلس البولونيـــات في سيارته بشعورهن الشقراء المجدولة ، ووجوههن الحمراء المتألقة ، فيحس بدبيب يسري في جسمه ، وبوحش هائل يكبل ارادته، وتطوق احدى الفتيات خصره ، وتضحك اخرى من الخلف ، فيغلي الدم في عروقه، فاذا

به لا طاقة له على مقاومة هـذه الفتنة .

وكانت البولونيات الحسان يتـابعن ابراهيم لوسامة منظره الشرقي ، ولخفة روحه ، وكرم يده ، يرشقنه بالورود وهو سائر من تحت نوافذهن ، ويحيينه وينادينه وهو يقود سيارته ، ويطالبنه بالحلوى والمرطبات اذا ما انتهين من السباحة . وهو يقبل على كل هذا يبتغي المتعة البريئة ، ولكنها متعة لم تكن من البراءة في شيء ، فهي تستنزف منه قـوة ومجهودا ، فهو دائماً محموم متلهف وقد اصبحت عشرة البولونيات شيئاً اساسيا في حياته ، لا يصبر على الامتناع عنها وقهرها . واصبحت مع الايام تهرب من حياته الصور المشرقة والسعاده الخفيـة التي كان يستمدها من وهج حبه ، وحل محلها صور عنيفة هائجة ، ورغبات قويه ثائرة .

اما سميحة فلم تكن تدري من هـذا شيئاً ، وكل ما لحظته شرود ونحول حل بخطيبها عزت اسبابه الى انشغاله بعمله . الى ان جاء يوم من ايام الخريف وكانت ريح الخريف قد عبثت بالبستان فتبددت اوراقه وتعرت اشجاره ، واذا بابراهيم يدخل برفقة عدد من البولونيات وانزوت هي تحدق به ذاهلة مشدوهة كمن صفع على وجهه ، ولم يشعر بالالم لشدة الضربة .

وكانت الفتيات ضاحكات مازحات ولم تدر سميحة ما الذي جعلها تنزوي وتختبىء كأنها هي التي اقترفت ذنباً ، ولا تريد ان يراها احد ، ووضعت سميحة يدها على قلبها الذي اخذ يخفق بعنف وشدة ، وهرعت الى غرفتها شاحبة مضطربة النفس .

ولم تمضي ساعة حتى سمعت من غرفتها الحان الرقص الافرنجي الغريب المهيج الذي قد شاع وانتشر اخيرا في بلدها ، واحست كان الموسيقى شامتة بها تسخر منها ، ولا تبالي بالمها . ماذا حدث لابراهيم ؟ ومتى كان ابراهيم ممن يتورطون بحب هؤلاء الغريبات الشقراوات ؟

وامتلأ قلبها كرها وحقدا .. وعادت تحكم العقل . لا .. لا فلن تفتن ابراهيم مثل هؤلاء الغانيات . ان قلبه ملك لها وهي تعلم ذلك حق العلم ، وقد يكون مضطرا لدعوتهن لامر يتعلق بعمله ، فقد يكون سائقهن المفضل ، وطبعاً على ابراهيم ان يسايرهن ، نعم قد يكون هذا السبب ، وطرق اذنيها صوت ضحك وهتاف ووقفت في النافذة فرأت الكؤوس ترفع والسجاير بيد الفتيات الثلاث .

ودعتها امها لتناول العشاء ، وعندها سمعت اخاها الاكبر يقول باشمئزاز وحنق « عال ! لم يكف ابراهيم مداعبة البولونيات

في الشارع ، واصطحابهن في سيارته الى شاطىء بحيرة طبريا ؟ لم يكفه كل هذا وانما اخذ يدعوهن الى بيته » .

وشحب وجـــه سميحة ، وفارقتها قابليتها للطعام ، ودارت الغرفة امام عينيها ، وجلست تنظر في وجه اخيها ، كأنه القضاء ، يحكم بالاعدام عليها .

ولحظ والدها اضطرابها فقال الوالد « ابراهيم شاب جاهل ، يطلب العبث واللهو ، الذي لا يستطيع ان يحصل عليه هنـــا .. دعوه ينال قسطه من ذلك في مكان آخر » .

واجاب الاخ الاكـــبر هازئاً « ابراهيم شاب .... او ليس هنالـــك شباب سواه .. فلماذا لا يفعلون فعله ... السنا نحن شبابا ، ان الواحدة منهن تمر بنا فلا يلتفت احدنا اليها

لا تقل ابراهيم شاب ، ولكن قـــل ابراهيم شاب ضعيف الارادة ، منحل الاخلاق ، ووجد فينا سهولة وليونة فتمادى في غيه وعبثه » .

وبينما الاب والابن يتناقشان في تصرف ابراهيم اخـذت سميحة تنظر حولهـــا كظبي جريح يريد ان يخفي جروحه ، ودخلت غرفتها باكية ، تتحسس موضع قلبها ، وتنظر حولها فاذا الوحشة والكآبة تطبقان عليها من كل جانب .

وعندما غادر ابراهيم البيت في صباح اليوم الذي يليه ، كانت سميحة ترقبه بحذر من وراء النافذة بعد أن كانت تقف في النافذة تلوح له بيدها .

وكان يسير في كسل وتباطوء فهو متعب منهوك القوى ، اما هي ففي تلك اللحظة رأت ابراهيم في شكل جديد ، فلم يعد بطلها المثالي الكامل، ولكنه اضحى بالنسبة اليها جبّاراً شريراً قد سحق حبها تحت قدميه . وفي المساء كان قلب سميحة يلتهب بشتى العواطف ، فهي تنتظره وتكره في نفسها هذا الانتظار ، وهي مشتاقة اليه وتحتقر في نفسها هذا الاشتياق ، واذا به يدخل ، فاشرقت جوانب نفسها . ولكن للحظة قصيرة نسيت فيها الا انه كل شيء في حياتها ، وارادت ان تركض نحوه وتستغيث به ، ولكنه رفع عينيه في تلك اللحظه ، فرأت فيهما ما لم تره من قبل رأت فيهما خبثاً وعناداً بل انانية وعدم مبالاة ، وعادت فاظلمت الدنيا من حولها ولم تعد تجسر ان تخرج الى البستان .

وفي الاسبوع الذي يليه عادت البولونيات لزيارته وعادت سميحة تسمع صوت الكؤوس والرقص الافرنجي . ومر اسبوع لم تره فيه مطلقاً ، وهي الـتي كانت تنتظر مجيئه واعتذاره عن تصرفه ، واحجامه في النهاية عن الاتصال بالبولونيات .

ولكن شيئاً من هــذا لم يحدث وانما بقيت هي في انتظارها واستمر هو في عبثه ولهوه .

وجاءت صديقاتها وكل منهن تحمل لهــا خبرا عن تصرف ابراهيم ، فقد رأته احداهن بصحبة احدى البولونيات في ضوء القمر ويده بيدها ، ورأته اخرى وهو سكران يترنح في الشارع ويغني « أنا على حب البولونية » .

وجاءت اخرى تقول ان البولونيات اقمن حفلة لجمع المال ، وكان في برنامج الحفلة لعبة البريد حيث وقفت باقة من الفتيات على المسرح وكل تحمل عــلى صدرها رقمها الخاص ولكل من الحاضرين ان يختار ايا يريد من الفتات ليكتب لها رسالة ، وحاملة البريد تتقاضى على كل كتاب شلنا ، وقد كتب ابراهيم سبعين رسالة .

وكانت هــذه الاخبار وكثير غيرهــا كانها قطع من نار جهنم تعذبها وتقلق راحتها .

وفي احد الايام ، وفي ساعة الاصيل ، وقفت في البستان قريباً من مدخل الدار ، لقد عزمت ان تتعرض له . واخذ قلبها يرف ، وعندها دخل وبرفقته الفتيات الثلاث ، وما ان رآها حتى صاح في وجهها في وحشية .

« لماذا انت واقفة هنا » ؟

وابتعدت هي في خوف ووجل « ادخلي الى البيت حالاً . انا لا اريد ان اراك واقفة في مداخل المنازل » وبينما هي منخفضة الرأس وجلة متراجعة ، وبينما هو يهدد ويتوعد غاضباً اذا بيدين تدفعانه بعنف وقوة .

« ما لك ولها ؟ »

والتفت ابراهيم ليرى ابن عمه هائجاً غاضباً : « انا لا اريد ان اراها واقفة هنا تعترض طريقي »

وزمجر سميح « ايها الوغد .. انت لا تريد ان تراها واقفة في بستان دارها ، ولكنك تريد ان تدخل هؤلاء الى هنا .

وثار الدم في عروق ابراهيم واشار الى الفتيات ليدخلن الدار ريثما ينتهي هو من شجاره مع ابن عمه . اسحب كلمتك بشأن هؤلاء الفتيات حالاً والا مزقتك اربا »

« انت ايها الوغد بمن يمزقني اربا ؟ » وهرعت سميحة الى الداخل تدعو امها لتفصل بين اخيها وابن عمها . ولما اتت الأمّان كانت ثيابها ممزقة والدم يسيل من وجنتيهما وايديهما ، ودفعت كل ام ابنها الى داخل الدار ، بينما كل منهما يتهدد ويتوعد ابن عمه .

وقبل ان يدخل ابراهيم الى البيت وقع نظره على سميحة ، وكانت الدموع تهمي من عينيها وقد ابيضت شفتاها وتناثر شعرها على وجهها ، واحس بشيء كوخز الابرة ، بشيء يكاد يوقظ ناحية خامدة جامدة في حياته ، ولكنه كان من الغضب والثورة بحيث لم يعر وخز الابرة اى التفات .

ودخل سميح يزمجر الى بيته : « سميحة » انزعي الخاتم من يدك حالا .. وانا الذي سأضع حدا لتمادى هذا الوغد وتطاوله علينا »

وهوى قلب سميحة .. تنزع الخاتم من يدها ... آه ان شجرة تقلع من جذورها وترمي على قارعة الطريق لها امل في الحياة اكثر من سميحة بعد ان تنزع الخاتم من يدها .

وسمعت صوت اخيها يزمجر ثانية : « انزعي الخاتم من يدك ايتها البلهاء ، والا حطمت البيت على رأسك انت الاخرى . انني افضل ان تموتي على ان نذل بسببك ؛ أفهمت » ؟

وقالت الام « تمهل يا ابني .. ولا تتعجل الامور . انتظر حتى يعود والدك على الاقل »

« اسكتي انت الاخرى ، فانا مسؤول بقدر والدي وزيادة ... قلت لك مراراً ان سميحة يجب ان تترك هذا السافل بعد ان اصبح مشهوراً بتعلقه باولئك المتهتكات .. لقد اصبحنا مضغة

في افواه الناس . انت لا تتجولين في الشارع ولا تسمعين ما يحكى عنه في المتنزهات والاندية.. ان سميحة يجب تترك هذا الطائش » .

وادار وجهه نحو اخته ... : ماذا؟ الم تنزعي الخاتم ؟. الا تفهمين ما يقال لك من المرة الاولى ؟ » وببطء امتدت اصابع سميحة النحيلة الى الخاتم الذهبي تنتزعه برفق ، وكأنه آخر امل مشرق في حياتها تقذف به مكرهة .

ومرت الايام وسميحة تذوي وتذبل ، تقضي معظم ايامها في الفراش .. وبفزع لحظت الام نحول ابنتها ومرضها فاخذت تسري عنها حينا ، وتعظها حينا آخر قائلة لها : « لو تزوجت منه لعشت تعسة حزينة ، فهو جافي الطبع ، مسترسل في اهوائه ، وستشغله الحسان دائماً ، سيسيء معاملتك ، ويجعل ايامك مرة كالعلقم. وافضل بكثير ان يتألم المرء في البداءة على ان يشرب كأساً مرة المذاق كل العمر .. او لا يقول المثل : « عذاب ساعة ولا كل ساعة » . وسميحة لا تجيب على هذا الكلام ولا ما يشبهه بشيء ، وانما تنظر من فراشها الى رؤوس الاشجار وتحاول ان تنفض عن نفسها هذا الفراغ والحزن الشديدين اللذين يكبلان حياتها .. لقد تحطم قلبها ولم تعد تجد

للحياة معنى ، فهي تستقبل الصبح متبرمة به ، وعند الغروب يجثم على قلبها حزن صامت عميق و كآبة سوداء معتمة ، كأنها ضباب اسود كثيف يحجب كل ما حولها ، ويبقيها في وحدة لا يستطيع احد ان يشاركها اياها ، او ينقذهـا منها . ولا تسل عما كان يثير فيهـا محيطها من حزن متجدد ، فهزة اشجار البستان ، والظلال النائمة ، وحفيف الاوراق ، وشذى البستان ؛ كل هـذه تحولت من ارواح رقيقة نـدية الى اشباح تحوم حولها تذكرها بماضي حياتها الجميل الذي انقطعت اسبابه ، وانبتّت اواصره ...

نعم تحول كل هـذا الى اشباح ، فقد كانت يد الخريف قاسية ، وضربته قاضية ، ولم يبقَ من الشجر الا اعواد بنية واقفة في البستـان ، وما اسرع ما جاء الشتاء ، وكانت الريح تصفر بين الاشجار في الليالي المظلمة فترتعش سميحة في فراشها ، فهذه الريح هي الأخرى عنصر لا يبالي جزعها ووحشتها . وفي الشتاء ازداد رقص البولونيات وازدادت الحفلات ، وازداد تصاعد الدخان من لفافات التبغ التي تحملهـا اصابع البولونيات ، وازداد تعلق ابراهيم بكل هـذا .... وتضاعفت دقات قلب سميحة ومرضها واخذها اهلوها الى بلد على شاطىء البحر لعل تغيير المناخ والمناظر ينسيها ويسليها ، ولكنهـا كانت تنظر الى البحر فاذا هو غريب

عنها. لقد رأته قاسياً كبيراً هائلا ؛ حيث تبدو هي وآلامها ذرة صغيرة تثير سخريته وتهكمه ؛ وطلبت العودة الى البيت ، فجو البيت وجبال بلدتها ارفق بها من هذا الازرق المجنون .

. . . .

وفي احد الايام دخل الى بيتهم شاب غريب برفقة أخيها سميح .... لقد رآها الشاب في بلد الساحل وهو صديق لاخيها من عهد المدرسة .. ونظر الشاب متفرساً في وجهها . وفهمت هي الغرض من مجيئه ، ونامت تلك الليلة قلقة مضطربة .

وفي الصباح سألها والدها ان كانت توافق على الزواج من هذا الفتى المتقدم لخطبتها ، فهو معلم في مدرسة ابتدائية ، ويملك بيتاً ، ثم هو هادىء الطبع ، لطيف السجايا معروف بحسن اخلاقه ولا يدخن ولا يقامر ولا يعاقر المسكر .

ونظرت سميحة الى والدها ، وانفجرت باكية « لا .. لا اريد ... انا مريضة » .

واخذت الوالد الشفقة على ابنته واجاب « لقد اخبرناه انك متوعكة الصحة الآن ، ولكنه اجاب بانه مستعد ان ينتظر شفاءك »

« انا .. لن اشفى » .

كان هذا وقد بدأ الربيع يشب من الارض اخضر ريان ، واخذت السحب تنجاب عن وجه السماء ، ودار العطر في كؤوس الزهر ، وتلون الزهر بكل لون بهي زاه...

كان هذا عندما عاد النيروز الى البستان ، وازهرت اشجار اللوز والمشمس ، وكانت هذه الازهار البيضاء تبدو كملائكة صغيرة ، وهي تتطاير من الشجر الى الارض في النهار ، وفي الليل كشموع بيضاء تزين الشجر العالي الكبير .

وكان قد مضى اسبوع عـــلى طلب العريس الجديد ، قضته سميحة في الفراش وقال الطبيب ان سميحة تعاني من مرض اعصاب القلب ...

وسمع ابراهيم بتقدم فتى آخر يطلب يد سميحة ، وجاء سماعه النبأ بعد حفلة اقامها للبولونيات وكانت الغرفة مثقلة برائحة الدخان الكثيف ، واعقاب السجاير تملأ المنافض النحاسية ، وفتات الجاتو مبعثر على الارض واسطوانات الجاز منتثرة على الطاولة ... والخمرة تلعب برأسه ... وفجأة احس انه يكره كل هذا ، وانه سئم منه ... وانه لا ينتهي به الا الى هـذا .. اي الى اعقاب السجاير ، ورائحة الدخان وفتات مبعثر في ارض الغرفة ، ولكن الذي استحوذ عليه في تلك الساعة ليس كرهه لحياته الطائشة ،

واسترساله في الغواية .. ان الذي استحوذ عليه هو شعور بفقدانه شيئاً ثميناً جميلا .. شيئاً قد فر منه ... ودخل غرفته وجلس في النافذة في الظلمة وحيداً ... ووضع رأسه بين يديه .. سميحة سيخطبها فتى آخر .. واخذ معنى هذا القول يكبر ويتضخم ... واحس بوخز كوخز الابرة في قلبه ... ثم اذا بنار تتأجج في فؤاده ، اخذت تشتعل وتكبر، واستولى عليه غضب شديد .. من الذي يجسر أن يقترب من سميحة خاطباً ؟ . من هو الذى يتجاهل السنين التي عاشها وسميحة سويا تربطهما أواصر الحب والود والاتصال الروحي ؟. نعم من هو الذي يتجاهل أو يجهل كل هذا، ويجرأ أن يدوس الارض المقدسة، ويقترب من سميحة ؟ . وشعر بشوق شديد إليها ... الى أن يراها .. يرى عينيها الصافيتين ووجهها الصغير .. وتذكر ان هذه الاشواق كانت الى امد قصير جزءاً من حياته ، ثم ألقي حجاب كثيف بينه وبين حقيقة نفسه ، وحقيقة شعوره ، انقطع في أثنائها عن طبيعته وكأنما اصبح مخلوقاً غريباً عن نفسه .. وتذكر حادث البستان آه لقد مضى عليه عام كامل وظمئت شفتاه فجأة ، وامسى في حال من الهيام والشوق ، تلظى معها قلبه ، وعاد فايقظه النبأ الذي صدمه ..

سميحة ستكون من نصيب فتى آخر .. وثارت عصبيته ، واذا به يترك غرفته وينزل الدرج كالمجنون وفتح باب بيت عمه

.. فاذا به لا يجد الا سميحاً جالساً على مقعد يدرس . ورفع الفتى رأسه ، ومـــا ان رأى ابن عمـه حتى تحرك في قلبه الحقد والكراهية . ماذا اتى بابراهيم الى هنا ؟ . وهو الى وقت قصير كان يسمع موسيقى الرقص وقهقهة البولونيات في بيته ، وكانت امارات السكر بادية على ابراهيم . وزمجر ابراهيم .

« من الذي اذن لكم ان تخطبوا سميحة »

وانتصب سميح واقفاً « اهو انت ايها الوغد ، عدت الى هنا؟ اخرج حالاً .. من الذي اذن لنا ان نخطب سميحة ؟ . هاها .. نحن ننتظر الاذن منك .. اليس كذلك ؟ »

واقترب ابراهيم « اسمع يا سميح .. ان هذا الامر لن يحدث والا افرغت مسدساً في رأسك ورأس العريس » .

وهنا خرج الاب والام وبقية افراد العائلة .. لقد كانوا نياما وايقظهم صوت المتخاصمين . وزمجر سميح : « انت ممن يحملون المسدسات ؟ .. اذهب يا ابراهيم الى احضان البولونيات ، اذهب واقطف ورداً للحسان ودع المسدسات لاصحابها ! » .

وجاء صوت ابراهيم منتهراً « سميح .. لا تتماد في الكلام » .. ثم وجه الكلام الى الجميع : « اسمعوا ان سميحة هي خطيبتي انا ، وكل من يحاول ان يعترض سبيلي ، او يتعدى عـــلى حقوقي

فسأفرغ في رأسه مسدساً . أنا انذركم » .

وهجم سميح على ابن عمه غاضباً : « اخرج من هنا ايها النذل سميحة ليست من فضلة البولونيات » . وهرع الاب يفصل بين الشابين اللذين أطبق كل منهما على الآخر بشراسة وقوة بالغتين . وقال الاب : « اخرج من هنا يا ابراهيم .. ما لك ولنا ... الم يكفك ما سببته لنا من الألم والاهانة؟ « وقالت الام : « اخرج من هنا يا ابراهيم ولا ترمنا بدم .. ليس لك نصيب عندنا . . وبنات الحلال كثيرات ، ما لك ولنا تحفزنا الى الشر . . »

ووقف ابراهيم بعدان فصل بينه وبين ابن عمه ، وقد اسقط في يده .. الكل يطرده ويرفضه ، لقد احس بحقارته وكرامته المهانة .... وعندها خنقته العبرات ، واستعظم ان يبكي أمامهم فادار وجهه ونزل الدرج ، وهو يشرق بالدمع .

وفي تلك الليلة اصيبت سميحة بنوبة في القلب ، استدعي على اثرها الطبيب الذي قضى شطراً طويلاً من الليل في معالجتها .

وفي الليلة التاليـة قضى ابراهيم جزءاً من الليل يرقب غرفـة سميحة فاذا مـــا أُطفىء النور وسكن البيت انسل الى البستان . وكان نور القمر يضفي بأشعته الفضية على جوانب البستان ، وما كاد يصل الى اسفل نافذتها حتى رآها تطل من النافذة .. واخذ قلبه

يدق دقات سريعة . واشار اليها ان تنزل اليه . فهمست قائلة انها مريضة ثم قالت له ان ينتظرها لتجرب قوتها .. وبعد لحظات خالها هوسنين رآها تطل من الباب الخلفي المؤدي الى البستان، ولكنها وقفت هنالك يمنعها الضعف من التقدم . فهرع اليها وهو يراها كملاك نحيل بثوبها الابيض الطويل، ووجهها الشاحب ، واحتضنها بين ذراعيه ...«سميحة » وخنقته العبرات ثانية ، وحملها وسار بها إلى شجرة نائية ، وكانت دموعه تسقط على وجنتيها ويديها وثوبها ، وتمتزج بدموعها هي ، والقى بحمله الثمين على المقعد تحت الشجرة

« سميحة » آه .. « وعادت الدموع تخنقه ، ثم تابع يقول : « أو بامكانك ان تغفري لي »؟ ونظرت اليه بعينيها السوداوين الحزينتين « ابراهيم .. ارجوك .. لا تبكِ انا لا استطيع ان اراك باكيا » وانفجرت هي باكيه منتحبة وقد القت برأسها على صدره ، وطوقته بيديها النحيلتين وبللت ثيابه بدموعها السخينة ... عاقبيني يا سميحة عقابا مريراً يليق بخطأى الكبير .

« لا .. لا يا ابراهيم دعنا من العقاب » . ولكن الا تشتركين معهم في احتقاري وامتهاني ؟ انت لا تحتقرينني مثلهم ؟»

« لا .. لا يا ابراهيم .. انهم قساة جفاة لا يفهمون موقفك .. ولكن انا احبك وانت افضل منهم جميعاً . »

« ولكن لمَ هـذا التحول .. ماذا الم بك .. ألعلّي الملام ؟ طبعاً ومن غيري ، انا الذي شوّه حياتك ، وتركك ليسير في سبل الضلال والتهتك » واحس بيديها تسعيان الى فمه لتسكتاه ، وكانت يدها حارة مضطربة نحيلة . والقى بشفتيه عـــلى يديها يغمرها بالقبل ، ونظر في عينيها فاذا بهما تناديانه ، واحس بالنشوة تغمره وتملأ جوانب نفسه .. واحتضنها بين ذراعيه بعنف وشدة « سميحة حبيبتي .. قولي انك لن تتركيني .. ابدا »

« لا يا ابراهيم .. انا ملكك لك .. ان حياتي لا تعني شيئاً الا اذا كانت متصلة بك، تسيطر انت عليها. ابراهيم .. قبلني قبل ان اهرب منك .. الم تقل لي يوما انك ستعاقبني على الهرب سلفاً .. قبلني سلفا من الآن . فانا مشتاقة اليك ، » ورفع ابراهيم وجهه قليلاً ونظر الى سميحة، ولمع في ذهنه خاطر رهيب تهرّب منه .. فقد يفقدها .. دون ارادته وارادتهـا ، وكأنمـــا هو يريد ان يستوثق منها ان القدر لن يسيء اليهما . فسألها « سميحة ولكنك لن تهربي مني ثانية »

« لا يا ابراهيم .. ابدا »

« حتى لو ... »

ونظرت اليه بعينين حائرتين « حتى لو ماذا ؟ »

« آه .. لاشيء .. » وعاد يلمس شعرها الاسود الحريري ، ولكنه كان يفكر بالقدر القاسي .

« ابراهيم انا لن اهرب منـــك ابدا ، ولن اسمح للخجل والاضطراب ان يمنعاني عنك . لقد تخلصت منهما . انت لا تعلم مبلغ شوقي الشديد اليك .. اريد ان ابقى هنا معك الى الابـــد فانا لا احس اني سميحة الا اذا كنت معك .. لقد كنت كل هذا الوقت غريبة عن نفسي ، وكان كل شيء بشعاً خاويا اجوف »

« انا اعلم يا سميحة ...او لست انا المسؤول عن كل هذا »

« لا .. لا .. المسؤول هو قلبي انا »

وكان قلبهـا في تلك اللحظـة يخفق بعنف وشدة . ثم خارت قواها .. واحتضنها هو بـــين ذراعيه خائفا جزعا حائرا في امره وهمست الفتاة « دعني اذهب »

« انت مريضة ، »

« احس بخفقان قلبي » وبعد لحظة كان يعاني ابراهيم فيها الما حادا قالت « لا تجزع .. سيزول كل شيء في الصباح » .

« دعيني اوقظهم واستدعي لك الطبيب »

« لا .. لا سيكون غضبهم شديدا عليّ اذا علموا اني كنت هنا » وامتلأت عيناها بالدموع وحملها وسار بهـا الى الباب الخلفي

«انت لا تستطيعين صعود الدرج ، دعيني احملك الى نهايته »

« نعم .. هـذا افضل »

« انا خائف عليك .. وان كنت تتحاشين ان استدعي لك انا الطبيب .. ايقظيهم انت واطلبي الطبيب ».« سأفعل اذا كان لذلك ضروره . ولكن مـــاذا بامكان الطبيب ان يفعل ، انت افضل من كل الاطباء لقد سئمت منهم جميعاً » .

« وهل سأراك في الصباح ؟ »

« طبعاً »

« اذن هيا بنا » وصعد الدرج وهو يكبت انفاسه ، وبخفة فتح لها الباب ، ودخلت ببطء وهي تتوكأ على الجدران ثم رأى باب غرفتها يفتح والتفتت نحوه وخيل اليه انها تهاوت على سريرها

وبخفة نزل الدرج .. ولكن قلبه كان ثقيلاً . وسار الى المقعد الذي كانا جالسين عليه من لحظات ، وكان عبير الازهار يصل اليه حارا شديدا .. ثم سار الى فراشه ، يرقب النجوم حتى الصباح .

وفي الصباح لم تقف سميحة في النافذة .. ووقف جزعا مرتجفا ورد على جزعه هذا صوت صراخ وعويل من بيت عمه . وتهاوى هو على السرير . لقد وجدوا سميحة جثة هامدة .



وعندما دخلت امه الى غرفته كان ابراهيم مغمى عليه .

. . . .

وعند العصر سير بالنعش الذي يحمل سميحة من تحت اشجار البستان ، وكان ثوبها الابيض يرفرف كأنه يودع البستان ، وكان على وجهها الشاحب ابتسامة الرضا والاطمئنان . وهبت ريح عاتية مثقلة بعبير الزهر ، وتناثرت معها بشدة ازهار اللوز والمشمش على جثة سميحة وثوبها الا بيض المرفرف .

وعادت الريح تهب بشدة ، وكأنما يريـد البستان ان يحمّل جثة سميحة اثمن ما فيه وتهاوت ازهار اللوز والمشمش والخوخ والبرقوق كانها ملائكة صغيرة نقية ، واستقرت على جثة سميحة وكانت رائحة البخور تمتزج مع رائحة الزهر فيتألف منهـا ريح عميق حزين ، ولكن سميحة بقيت تبتسم .

. . . .

ومرت الاشهر وابراهيم طريح الفراش يعـاني من حمى الدماغ ، ويقضي يومه يهذي قائـلا « لا تهربي مني .. انا أعاقب سلفا ... دعيني استدعي لك الطبيب . سامحيني .... ولكن انا قاتل .. قاتل نفس بريئة .. لا لا .. ادخلي الى البيت .. لا تقفي في مداخل الدور .. اسمع ياسميح .. سميحة خطيبتي انا ..

وهـذا الامر لن يحـدث ! سأفرغ مسدساً في رأسك .. اين مسدسي ؟ اعطوني اياه . نعم انه تحت الوسادة .. لا . لا انت مريضة .. لا تهربي مني .. سأراك في الصباح .. ولكن متى تطلع الشمس ؟ . انها لن تطلع.. لقد خدعتني سميحة .. مرت ساعات .. وأيام .. وشهور وانا انتظر ، ولكنها لم تقف في النافذة .. ماذا ، ولن تقف ! ، من أنت ايها الخوري ؟ ، لماذا انت قادم الى هنا . لتأخذ سميحة .. الى أين .. الى القبر .. ولكنها صغيرة .. اذهب .. اذهب ان رائحة البخور ثقيلة جدا .. انها تزعجني .. لا استطيع ان استنشقها ! »

كان ابراهيم يقضي الساعات وهو يهذي ، ويحرك يديه وامه واخته لا تغادران غرفته ، وقد ترفع الام يديهـــا وتقول وهي تبكي : « عفوك يا الله .. متى ستشفق عـــلى هذا الفتى ، وتنقذه من عذابه ؟ . هذا عذاب شديد يا ابراهيم .. ولدي .. كفى ! انت تقسو عـــلى نفسك وعلينا » .

واذا ما استيقظ الفتى من هذيانه كان خائر القوى ، ضعيفا ، يعلو وجهه اسى عميق ، فتنتعش الام وتجلس الى قربه ممسكة بيده تحدثه اخبار اليوم واخبار الجيران ، وهو ينظر في وجهها يجرب جهده ان يصغي ويفهم .

واخذت تقل ساعات الهـــذيان ، وتزداد ساعات اليقظة . ولكنها يقظه تعسة واعية للالم الكبير الذي يستولي عليها .

وفي احد الايام جاء عمه وزوجة عمه لزيارته ، وكانت هذه اول زيارة بعد موت سميحة ...... وبقي ابراهيم يحدق في عمه وامرأة عمه ويقول في نفسه : هذه امها وهـذا ابوها . واقترب عمه منه وقبّل جبهته وقال له : « انه يعز عليه كولده ، ولا يريد ان يراه في هذا الضعف والاستسلام .. وان موت سميحة هو ارادة الله ، وعليه هو ان يجمع شجاعته ويقبل هذه الارادة الالهية

وفي اليوم الذي يليه دخلت ام ابراهيم تقول لابنها ان ابن عمه سميح يرغب في زيارته ، ان كان يرغب هو في هذه الزيارة . وعندما دخل سميح اشار اليه ابراهيم ان يقترب منه اكثر .. بل ان يجلس عـلى فراشه .. ولكنه لم يستطع ان يتكلم شيئاً وامسك سميح بيد ابن عمه النحيلة ، وضغط عليها ثم قال وهو يكبت العبرات التي كانت تصعد الى حلقه : « لقد فهمت يا ابراهيم أنك تعتبر نفسك المسيء الى سميحة .. وانا ما جئت الى هنا الا لاعترف لك بتوبيخ الضمير الذي يخزني دائما .. فانا مسؤول عن موت سميحة مثلك . ولكن سميحة كانت مريضة ، وقد يكون مرضها هو المسؤول الرئيسي . غير أنّ الذي يعذبني هو اني لم

اسمح لكما ان تتقابلا قبل موتها . فانا اعلم كم كانت تتمنى هذا اللقاء. لقد كانت المسكينة تنظر اليّ بعينين متوسلتين وتهم بأن تقول لي شيئاً ، ولكنها لم تجسر ، وماتت دون ان تحقق رغبتها. اني استغفر ذنبي من سميحة بالصلوات وبزيارة القبر ، ولكني لا احس ان هذا يطفىء غليلي ، ولهذا فانا جئت اليك يا ابراهيم لتغفر لي » واقترب ابراهيم من سميح والقى رأسه على ركبة ابن عمه ، واخذ، للمرة الاولى ، يحدثه بصوت هادىء صاف عن لقائه لسميحة في البستان .. وكان كمن يحدث نفسه .. بل كمن يسمح لنبع صاف ان يتدفق من نفسه ، بعد أن كان يثقله ويملأ قلبه .

وكان سميح يستمع مشدوها الى قصة هذا اللقاء .. وكان يستنشق اثنـــاء حديث ابراهيم رائحة الزهر ورفرفة النسيم ، وتناثر ازهار اللوز كأنهـــا شموع صغيرة متألقة ، وانفاس سميحة التي لا تزال الى الآن تثير في ابراهيم شوقا وولها .

وعندما انتهى ابراهيم من كل هذا جلس ينظر في وجه سميح وقد تألق في عينيه شبه ظفر حزين ثم قال بيأس: « أيّنا القاتل الآن يا سميح ، ان الذي يعذبني هو انها لولا خروجها الى البستان لما ماتت . نعم انا متيقن من ذلك ، لقد اثار فيها الحادث تهيجا فوق ما تحتمل اعصابها .

ولوح ابراهيم بيده وقد خيل اليه ان ابن عمه سيستولي عليه الاغماء « دعنا من القتل يا ابراهيم . فهي مشيئة الله .

ولكن او لا تزال انت عاتبا عليّ ؟ »

ونظر ابراهيم الى ابن عمه . لقد كانا دائما يتميزان كلاهما بثبات وعناد في الرأي ، ولذا فقد كانا قل ان يتفقا اثناء اللعب في سني صغرهما ؛ ولكن الآن نظر ابراهيم الى سميح ، وخيل اليه ان عيني سميحة تنظران اليه « لا يا سميح . انا لست عاتبا عليك ، ولو كنت مكانك لتصرفت مثل تصرفك لقد حفظت كرامة سميحة » وهو لا يدري ما الذي جعله يمد ذراعيه النحيلتين ويعانق ابن عمه عناقا طويلا صامتا .

وفي احد الايام وكان الفل والورد والياسمين تعطر الرياض رأى الناس ابراهيم وسميح يسيران ببطء ، وكانت عينا ابراهيم تتألقان كأنهما على موعد للقاء . ويقال ان وجهتهما كانت المقبرة الصغيرة الواقعة خلف الكنيسة .

عابرو السبيل